المراهقون

دراسة نفسية إسلامية للآباء والمعلمين والدعاة

د. عبد العزيز بن محمد النغيمشي

أستاذ علم النفس

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار المسلم للنشر والتوزيع

© دار المسلم للنشر والتوزيع ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النغيمشي، عبدالعزيز بن محمد

المراهقون دراسة إسلامية للآباء والمعلمين والدعاة.- ط٣.- الرياض

١٨٠ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك ٥ - ٥١ - ٨٥٤ - ٩٩٦٠

١- علم النفس الإسلامي أ- العنوان

ديوي ٢١٤,١٥٥٥ ٢٢/١٧٦٨

رقم الإيداع : ٢٢/١٧٦٨

ردمك : ٥ - ٥١ - ٨٥٤ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الصف والإخراج

مركز دار المسلم للصف والإخراج الفني

دار المسلم للنشر والتوزيع

الرياض ١١٤٨٤ ص.ب ١٧٣٥٦ هاتف: ٤٩٣١١٤٩ ناسوخ: ٤٤٥٣١٧١
www.dar-almuslim.com
info@dar-almuslim.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

يعيش المراهقون في هذا العصر أزمة نفسية، واجتماعية، ويتخذون موقفاً رافضاً، أو مجاملاً للكبار، كما يعيش المربون من آباء ومعلمين ودعاة حيرة تجاه أزمة المراهقين، ويشعرون بغموض وخفاء عناصر تلك الأزمة. وفي الغالب إن الطرفين يرغبان رغبة عميقة في فهم ومعالجة المنطقة الفاصلة بينهما، والتعرف المدروس على عناصر تلك المشكلة والكيفيات المناسبة لحلها. ومن أمثلة مشكلات المراهقين الشائعة، والغامضة – على سبيل المثال لا الحصر:

- موقف الشك والرفض من الكبار .
- الابتعاد عن مجالس الكبار .
- الغضب والغيرة الشديدان .
- العناية البالغة بالشكل والهندام .
- أحلام اليقظة (كثرة التفكير) .
- التقلب والمزاجية .
- الاستمناء (العادة السرية) .
- السيطرة، والاستقلالية البالغة .
- الحساسية للنقد .
- ضعف الطموح، وهبوط الإنتاجية .

- زيادة الطموح، وهبوط الإنتاجية .
- سرعة التقمص، والتقليد في محيط الرفقة .

وقد تكون المشكلات أشد مما ذكر، حيث تصل - أحياناً - إلى درجة المرض والشذوذ النفسي مثل:

- الهروب من البيت، أو المدرسة .
- العزلة، والانطواء، ورفض المجتمع .
- الاكتئاب (الحزن الشديد)، والشك .
- الشذوذ، والانحراف الخلقي .
- التوهم، والوسواس .
- الحزبية، والتعصب .

ولا تخلو هذه المشكلات إما أن تكون نابعة من ذات المراهق، أو من محيطه الاجتماعي، أو منهما معًا. وفي كل الحالات لابد من تحديد الظواهر، والأسباب والعناصر، المتضمنة في هذا الموضوع الحيوي .

وتهدف هذه الدراسة إلى تبسيط المعلومات التربوية، والنفسية، المتعلقة بالمراهقين، وكيفية رعايتهم، والتعامل معهم، وتمكين الآباء والمربين والدعاة من ممارسة دورهم الإشرافي والتربوي ببصيرة، ودراية. وتهدف - أيضاً - إلى بيان تلك المعلومات والكيفيات من خلال نظرة إسلامية شاملة إلى النفس وتربيتها؛ إذ أن القرآن والسنة النبوية ثم آثار السلف والعلماء مصادر أساسية لفهم السلوك الإنساني وتوجيهه. وقد تناولت هذه المصادر موضوع نمو الإنسان عموماً وموضوع مرحلة الشباب والمراهقة - مظاهرها، وسننها، وضوابطها - على وجه الخصوص. كما أن الدراسات في علم نفس النمو، وعلم النفس، التربوي، والتربية عمومًا

تناولت هذا الموضوع من وجوه كثيرة، وبرؤى متعددة. وقد تم الانتقاء والاستفادة منها بما يتلاءم ويتوافق مع النظرة الإسلامية للمراهقة والمراهقين .

إن للمراهق طبيعة متميزة، وتوجهاً فريداً في مظاهر نموه، وكيفياته سواء في المظاهر الجسدية، أو الانفعالية، أو العقلية، أو الاجتماعية. ولا ينفك المربي عن الحاجة الماسة إلى التعرف على تلك المظاهر والكيفيات، التي تحدث للمراهق، وأسباب حدوثها؛ إذ أن الحكم على الشيء والتعامل معه يجب أن يكون مبنياً على تصوره ومعرفته. وقد تناولت هذه الدراسة هذا الجانب في القسم الأول، كقاعدة أساسية معرفية لابد منها، للتعامل التربوي مع المراهقين .

أما القسم الثاني من هذه الدراسة فقد تعرض لبيان أركان تكوين وبناء المراهق، وكيف يتمْ هذا البناء والتكوين بتوازن، وتكامل، وشمول، من خلال دراسة حاجاته ومتطلباته الأساسية، سواء النفسية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، واقتراح الطرق، والأساليب، والمحتويات المناسبة، لهذا التكوين. كل ذلك من خلال المنظار الشرعي، المستقى من القرآن والحديث، ومن نماذج المراهقين، والمربين، في البيئة الإسلامية، وربط الموضوع بالمراهق المعاصر، وما يتصف به من خصائص، وما يحيط به من مؤثرات، وأجواء فاعلة لابد من أن ينتبه لها المربي، إضافة إلى الدراسات النفسية والتربوية الحديثة، المتوفرة في الموضوع .

وقد رتبت حاجات المراهق الأساسية ترتيباً تدريجياً، يعتمد بعضها على بعض أحياناً، ودعمت ووضحت بالأمثلة، والنماذج القرآنية، أو الحديثية، أو التاريخية، أو الواقعية. كما استخدمت الأشكال أو الجداول؛ لإيضاح بعض الأفكار المهمة .

ومن نافلة القول: الإشارة إلى أن الموضوعات التربوية النفسية - وخصوصاً ما يتناول سن المراهقة - تعد من أكثرالموضوعات اشتباكاً وتعقيداً؛ إذ أن ما تشتمل عليه من ظواهر ومتغيرات وعناصر تتداخل وتتمازج بحيث يصعب على المتخصص الفصل بينها، وقد لا يتمكن من تحديد السبب، والمسبب، والعلة، والظاهرة، والمقدمة، والنتيجة .

والمتخصص في علم النفس والتربية لا يتعامل مع أجرام أو أشكال مادية، كما يتعامل رجال الهندسة والكيمياء والصيدلة في مجالاتهم، بل يتعامل مع الإنسان بروحه، وعقله، وجسده. بانفعالاته، وأشواقه، وآماله. بسلوكه، وشعوره، وأعماقه. ولهذا لا يتوقع من الباحث في تلك القضايا أن يفي بكل المتطلبات، ولا أن يحسم جميع المشكلات المتعلِّقة.

وحسب القارىء أن يجد ما يفتح له الأبواب، حول هذه المرحلة الحرجة من نمو الإنسان، وما يرشده إلى بعض الأسس والتغيرات لمسالك المراهقين، ومواقفهم، وشخصياتهم؛ فربما استفاد منها، وهو يمارس التربية، والتعليم، في أحرج فترات نموه واستوائه، وأكثرها تأثيراً وحساسية .

وأسأل الله أن ينفع بذلك الجميع. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

د. عبد العزيز بن محمد النغيمشي

البــاب الأول
طبيعــة المراهــق

طبيعـة المراهــق

مدخـــل:

راهق الغلام فهو مراهق إذا قارب الاحتلام، ومادة رهق تعني أيضاً: السفة والخفة والعجلة وركوب الشر[١] .

والمراهقة عند بعض علماء النفس هى المرحلة التي تبدأ من البلوغ إلى اكتمال نمو العظام، حيث تنتهي باستقرار النمو العضوي عند الفرد، وهذا يقع عادة بين سن الثانية عشرة والتاسعة عشرة، على تفاوت بين الأفراد وعلى تفاوت بين الجنسين: الفتيان والفتيات. وهى فترة نمو شامل ينتقل بها الإنسان من مرحلة الطفولة والاعتماد على الغير إلى مرحلة الرشد والاستقرار. وهى مرحلة تجمع بين مظاهر البلوغ المتعددة، وبين مظاهر الاضطراب وعدم الاتزان وكلا النوعين من المظاهر داخل في المعنى اللغوي المذكور آنفاً .

ويتساءل كثير من الآباء والمربين: من هو المراهق؟ وما هو عالمه؟ وما الذي يحدث للمراهقين ليحصل هذا التغير الملفت في هيئاتهم وتصرفاتهم وطبيعة علاقاتهم؟ ولماذا لا ينقاد المراهقون الانقياد التام المعتاد للكبار؟

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة رهق.
وانظر أيضاً مختار الصحاح .

ولماذا تكثر الخلافات والمشكلات بين المراهقين والكبار؟ وما الأسباب الخفية وراء شيوع الانحراف وارتكاب الشرور في هذه الفئة من أفراد المجتمع.

هذه الأسئلة العامة وغيرها لا يمكن أن نجيب عليها إلا إذا عرفنا من هو المراهق: جسده، وعقله، وانفعالاته، ومجتمعه. ولا يتبين الأمر إلا إذا حاولنا الإجابة على أسئلة تفصيلية أخص، تراود خاطر الآباء والأمهات والمربين، أو تتردد على ألسنتهم .

جســد المراهــق

ما الذي يدعو المراهقين إلى استعراض ما لديهم من قوة ولفت الأنظار إليهم أحياناً؟ ولماذا يسعى الكثير من المراهقين والمراهقات إلى اقتناء المجلات غير المحافظة ومتابعة المسلسلات الغرامية والبوليسية؟ .

ولماذا يقومون بالمراسلات والمهاتفات والمعاكسات؟ ولماذا يصاب المراهق بالارتباك وعدم التوازن أمام الكبار؟ وما الذي يجعله يسرح كثيراً ويحلم كثيراً وهو في حالة اليقظة؟ ولماذا تحاول الفتاة أو الفتى أحياناً - التخفي بجسمه - أو ببعض أعضاء جسمه - عن الكبار؟ وما أسباب العزلة والانزواء؟ والقلق والشك الذي ينتاب المراهق بشأن جسده؟ وكيف نفهمه؟ .

أسئلة كثيرة، واستفسارات عديدة، تحتاج للمعالجة والبيان. ومن أهم الإجابات على مثل هذه الأسئلة القول: بأن المراهق يعيش تحولاً عضويًا وجسدياً لا يعي الكبار عنه إلا القليل، ومن ثم فإنهم لا يحسنون التعامل مع المراهق والمراهقة، ولا يُجِيدُون بناء العلاقة معهم مما يؤدي إلى الكثير

من الأخطاء التربوية والتوجيهية والعلاجية، عند معايشة المراهقين، والاحتكاك بهم .

إن جسد المراهق يواجه عملية تحول كاملة في وزنه، وحجمه، وشكله، في الانسجة، والأجهزة الداخلية،وفي الهيكل والأعضاء الخارجية، ويعدُّ هذا التحول الجسدي ميزة لمرحلة المراهقة، ومن أبرز معالمها .

فالنمو العضوي في المراحل السابقة للطفل كان مطرداً متدرجاً بطيئاً، أما في مرحلة المراهقة فإن الفرد يحس بالتغير العضوي السريع المتتابع، بل والمفاجيء أحياناً، والذي لم يعهده من قبل، وهذا أمر يشهده ويتعجب له الراشدون من الكبار عندما يفاجئون بالطفل وقد بدا طويل القامة، مفتول الساعدين، عليه سمات أجسام الرجال، أو عندما تفاجأ الأم وأقارب الطفلة وقد تغير طولها، وزاد وزنها، وبدت عليها سمات أجسام النساء .

وترى الراشد عندما يرى ذلك المراهق بعد انقطاع، يكيله بكلمات التعجب والاستغراب، أو السخرية والاحتقار، أو الفخر والاعتزاز، – حسب اتجاهات الأسر – يشير إلى أنه قد كبر، وتغير في وقت محدود وسرعة ملفتة. وترى الآباء والأمهات يهمزون، أو يلمزون أبناءهم وبناتهم – لما بدا من تغير أجسادهم، أو أشكالهم، كالبدانة، أو الطول، المصاحب للنحافة، أو طول الساقين، أو ضخامة القدمين والكفين. وبسبب ذلك تحدث التنبيهات، أو التعليقات، أو المداعبات المشوبة بالاستغراب، وأحياناً بالسخرية، والاحتقار، المنبعث عن شعور الكبار بسرعة التغير والتحول عن الطفولة القاصرة المحدودة إلى سمات الرجولة، أو الأنوثة المؤذنة بالاكتمال والسواء .

وليكون الآباء والأمهات والمربون على علم بما يحدث لجسد المراهق نحاول الإجابة على هذا السؤال: ما الذي يحدث لجسم المراهق؟ وكيف يحدث؟ ولماذا يحدث؟ .

إن وزن المراهق يأخذ في الزيادة بصورة ملحوظة ملفتة على فروق بين الذكور والإناث وبين المراهقين عموماً. والشيء الذي يجمع بينهم هو الزيادة الملحوظة في الوزن، مقارنة بالمراحل السابقة، ومن ثَمَّ يتجه الجسم إلى الزيادة، أو البدانة، ويقترن بزيادة الوزن النمو السريع - والملفت - في العظام والأنسجة العضلية، حيث تطول الساقان، والذراعان، ويكبر حجم الكتفين، والقدمين، ويكون ذلك بيناً يلفت الانتباه، كذلك يكبر الرأس، ثم حجم الجذع بعد ذلك. وفي داخل الجسم تبدأ الغدد التناسلية في إفراز الهرمونات الخاصة بها. أما هيأة المراهق - إضافة إلى ما ذكر - فتبدأ بالتحول إلى ملامح الرجولة أو الأنوثة بحيث يظهر الشعر في الوجه والعانة والإبطين، ويظهر على وجه البنت ملامح أخرى تتناسب مع نوعها. ويتبع ذلك تغير الصوت بين خشونة ونعومة وانخفاض وارتفاع ملفت. وتزداد خشونة المراهق وقوته، كما تزداد نعومة المراهقة وليونتها. ويتجه كل من النوعين في طريق معاكس للآخر في هذه الأبعاد في الأعم الأغلب، وينفرد كل نوع بتغيرات جسمية تخصه، لا يشاركه فيها الآخر؛ مثل نبوت شعر الوجه والنمو العضلي عند المراهق وظهور الطمث، وبروز النهدين، والنمو الدهني عند المراهقة .

ومستوى النمو الجسمي يبدأ سريعاً عند ولادة الطفل، ثم يتباطأ باطراد، إلى أن يبدأ البلوغ، حيث تشرع دورة جديدة، وسريعة في النمو والنضج. ومن التغيرات الداخلية الفاعلة والمسببة لهذه الدورة الجديدة

في النمو - إفرازات الغدد الصماء في مجرى الدم، كالغدة النخامية التي توجد في قاع المخ، وتؤثر على نمو العظام والهيكل، والغدة الأدرينالية - وتقع فوق الكُلْيَتَين - وإفرازاتها تؤثر في النمو العضلي، والنضج الجنسي في فترة البلوغ[١] .

وتتميز بعض التغيرات العضوية، والمظاهر الجسمية، بالمضايقة الشديدة للمراهقين والمراهقات، والشعور بالإحراج والخجل، من ذلك: ظهور بثور الشباب، التي تتناثر في الوجه. والإفرازات المنوية غير المعهودة. وعدم التناظر والتناسق في الأجزاء المختلفة للجسم، حيث تتفاوت فيما بينها فقد يبدو الأنف كبيراً، وملامح الوجه غير متناسقة، والجسم غير متناسب، عند مقارنة الأطراف بالجذع، وقد يحصل الاختلال الحركي عند المراهقين، ويفقدون الاتزان في المشي، والجري، وحمل الأشياء، والعمل اليدوي. وهناك تغيرات أخرى في نظام الجسم الداخلي؛ من ذلك: انخفاض نبض القلب، وارتفاع ضغط الدم تدريجياً، والتغير في استهلاك الجسم للأوكسجين. وتؤدي هذه التغيرات إلى شعور المراهق بالجهد والتعب، والرغبة في الراحة. ويكون المراهق حساساً للنقد الجسمي والشكلي[٢] من ذويه وزملائه ومدرسيه ومن الجنس الآخر .

وهذه التغيرات - أو أكثرها - يتصف بالجدة والسرعة والتزامن، مما يجعلها ملحة، ومستغربة، لدى المراهق، وأهله، ومجتمعه. فالسرعة في نمو

---

(١) انظر محمد مصطفى زيدان: النمو النفسي ص٧٩، ٨٠، وانظر، إبراهيم قشقوش: سيكولوجية المراهقة ص ١٢٨، ١٢٩ .

(٢) انظر محمد مصطفى زيدان: النمو النفسي ص ١٦٢، ١٦٣ .

العظام والعضلات، وفي زيادة الوزن والطول، تكون ملفتة، ومفاجئة للمراهق، ولبيئته الاجتماعية. وتقوم هذه التغيرات بتحويل الطفل إلى عالم جديد ووسط غريب عليه، كما أن التركيبة الاجتماعية والأسرية لا تقبل - في الغالب - هذه التحولات المفاجئة والسريعة بسهولة وعفوية.

أما الجدة فالمقصود بها أن معظم التغيرات التي تحدث بجسم المراهق هي تغيرات جديدة في نوعها، لم يسبق للمراهق أن مر بها من قبل، فبدو الشعر في مواضع معينة، وظهور الطمث، وتغير الصوت، وإفرازات الغدد التناسلية - كلها تغيرات نوعية جديدة، تظهر على المراهق، أو المراهقة، وتبرز في جسده، أو هيئته، أو حديثه. وهي توحي له بأن في الأمر جديد، أو أن وضعه قد اختلف عما سبق من حال، وأنه يستعد لعهد جديد ومهمة مختلفة بقدر اختلاف حالته وتحولات جسده .

ثم إن هذه التغيرات متزامنة أو متقاربة، فالتغير لا يحدث لجزء واحد، وهو لا يحدث لعدة أجزاء من الجسم في أوقات متباعدة أو متفاوتة، بل إن هذه التغيرات متزامنة أو متتابعة تحدث في فترة محدودة لا تتجاوز ثلاث سنوات في غالب الحالات، حيث يتصاحب نمو العظام، والأنسجة، وزيادة الطول، والوزن، وظهور الشعر، وتغير الصوت، والتغيرات الأخرى، مما سبق ذكره. وكل هذا يمثل نشاطات متجمعة أو متتابعة للناحية العضوية الجسدية عند المراهق قد تهزمه أو تؤثر عليه أحياناً عندما لا يتقبلها، أو يتكيف معها، التكيف الصحيح. كما أن الوسط الاجتماعي القريب والبعيد يلاحظ التحولات المتجمعة أو المتتابعة فلا يحسن - في الغالب - فهمها والتعامل معها .

ولماذا تحدث هذه التغيرات العضوية، والتبدلات الجسدية، حيث

يكبر الفتى حجماً وطولاً، وتتبدل هيئته، وسيماه، وتبدو عليه - أو عليها - ملامح الرجال، أو النساء، حتى رنين الصوت ونبراته تتبدل، وتحدث التحولات الملفتة والمتغيرة والمميزة لملامح كل من الجنسين، من نبوت الشعر في الوجه، ونمو الجهاز العضلي، وخشونة الصوت عند المراهقين، وظهور الطمث، ونمو الصدر، ونعومة الصوت عند المراهقات. وتفصيل الجواب على هذا السؤال موجود في الموضوعات الآتية - إن شاء الله - من هذا الكتاب .

إن المراهق يستعد لمواقف الرجولة ووظائفها ومهماتها، وإن المراهقة تستعد لوظيفة الأنوثة ومهماتها، وكل ذلك تقتضيه السنة الحياتية والإنسانية بأمر الله الذي له الخلق والأمر .

عقـل المراهـق

ما الذي يدعو المراهق للاختلاف في الرأي مع والديه ومعلميه؟ وما الأسباب التي تجعله يناقش القضايا معهم ويجادل فيها بعد أن كان مستسلماً مطيعاً في سن طفولته؟ ولماذا يريد المراهق التحدث والنقاش والمداولة؟ ولماذا ينزع المراهق إلى الاستقلالية؟ وإلى محاولة الانفراد في اتخاذ القرار؟ وخصوصاً في شئون حياته الشخصية؟ بل لماذا يسفه آراء الآخرين، ويتهمهم بالإجبارية، والتَّنَفُّد، ومصادرة الآراء أو يَسِمُهُم بالفردية والتحيز؟ ولماذا يعاند ويصر ويجابه؟ ولماذا يجنح المراهق - في كثير من الأحيان - إلى المثالية والصور النموذجية للحياة، ويطالب بذلك؟ ثم ما أسباب ورود الأسئلة الملحة على المراهق مثل: من أنا؟ ما هويتي؟ ما وظيفتي؟ ما هدفي؟ ما موقعي في الأسرة؟ ما موقعي في

المجتمع؟ هل أنا طفل أو طفلة؟ هل أنا رجل أو امرأة؟ بل قد ترد أسئلة مثل: لماذ خلقت؟ ما هدف الحياة؟ وما نهايتها؟ وأسئلة أخرى عن الحياة، والكون، والإنسان أعمق وأشمل .

ولماذا تبرز مواقف الإباء ومقت التبعية، والاشمئزاز من المن والأذى؟ ولماذا تظهر ألفاظ العزة والأنفة أحياناً؟ بل لماذا يلجأ بعض المراهقين إلى محاولة الانفصال، والبعد عن الهيمنة الأسرية؟ والاعتماد على النفس؟ أو التظاهر بالقدرة على ذلك. بل لماذا المجابهات بين الآباء والمراهقين، والمتعلقة بكيفيات الإنفاق ومصادره، ومدى الحرية أو التبعية فيه؟ ولماذا يفكر المراهق في ذاته ودواخل نفسه، ويتأملها، وينتقدها أحياناً، بعد أن لم يكن كذلك؟ وكيف ينتقد هيئته وصفاته ويتفكر فيهما؟ .

أسئلة كثيرة ترد في هذا الصدد، لم نشر إلا إلى جزء منها، وكلها تنم عن تحول مهم وجديد في تكوين المراهق وحياته .

إن التحولات والتغيرات العقلية، والمعرفية، هي من أهم المسوغات والأسباب التي تمثل الإجابة على تلك الأسئلة الآنفة الذكر .

لقد تحول المراهق والمراهقة من التفكير المادي إلى التفكير المعنوي، ومن التفكير الفردي البحت إلى التفكير شبه الجماعي، ومن التفكير الموجَّه للخارج فقط إلى التفكير القادر على تأمل الذات، وتأمل المحيط الخارجي في الوقت نفسه. كما أن المراهق والمراهقة تحولا عن التفكير السلبي القابل للتبعية إلى التفكير الإيجابي الباحث عن المسئولية. وعن التفكير الآني إلى التفكير الآني والمستقبلي معاً .

إن القدرة العقلية في مرحلة المراهقة تشهد تحولاً نوعيًا حيث يبدأ

الفرد بإدراك المجردات، والمعنويات، بعد أن كان أسيراً للمادة، لا تتضح له الأشياء إلا بالتمثيل المادي، ولا يستوعب القضايا المطروحة استيعاباً صحيحاً إلا بعد اقترانها بالنماذج والأمثلة الموضحة. فالمراهق يستطيع باستعداده العقلي أن يدرك معاني الصدق والاخلاص، والأمانة، وقيم الوفاء، والنبل، والعزة، والكرامة، وصفات الحرية، والعدل، والمسئولية ويستطيع المراهق إدراك الأبعاد المتعددة للقضية الواحدة في وقت واحد، لأن القدرة على تصور الموقف وتخيله موجودة، فهو يستطيع - مثلاً - تصور الوصول لمكان معين من عدة طريق دون سابق خبرة. ويتمكن من التحكم في البدائل المتعددة للوصول إلى حل المشكلة. فهو يستطيع - مثلاً - عندما يقع في مخالفة لا يرضى عنها والده أن يتصور الموقف المنتظر بأبعاده ويفكر في الأوجه المتعددة للحل وما يترتب على كل وجه ويقوم بعملية الاختيار .

وعندما تعرض عليه قضية مثل «الفراغ: أسبابه، وكيفية استغلاله» بإمكانه تفهم هذه القضية، وتصور الأسباب، والكيفيات بخلاف الأطفال، فقد لا يدركون المعنى الحقيقي لكلمة «فراغ» ما لم توضح وتمثل، فضلاً عن أسباب الفراغ وكيفيات استغلاله .

وقد تمت دراسات عديدة وضحت أن المراهق يتميز عمن دونه بالقدرة على التفكير المعنوي، وعلى التصور، والتخيل، مما يساعده على تفهم القضايا، ووضع الحلول للمشكلات حتى قبل حدوثها وهذا هو الذي يجعل المراهق يعي المعاني والقيم ويستطيع تفهمها، وتتجاوز تساؤلاته الإطار المادي القريب إلى الأبعاد المعنوية النفسية والكونية، فهو يفكر في معنى الحياة وأهدافها، وخلق الكون، والنفس، وأسبابه، ويستطيع

إدراك المعاني المرتبطة بذلك. وهو يبحث عن هويته، وموقعه ممن حوله، ووظيفته الاجتماعية... إلى غير ذلك من الجوانب المحتاجة إلى هذا النوع من التفكير التجريدي .

ورغم ما تمنحه خاصية التفكير المجرد، والتصور التخيلي للمراهق من سعة أفق، وقدرة على التعامل مع البيئة بكافة أبعادها وعلى فهم المعاني، والمجردات على وجه حقيقي - إلا أن لذلك مشكلات معرفية واجتماعية، من أهمها: المثالية في المطالب، والحيرة بين البدائل:

المثاليـــة: إن خاصية القدرة على التخيل والتجريد تعطي المراهق فرصة التفكير للوصول إلى حلول مثالية للمشكلات الشخصية، والأسرية، والمجتمعية، غير ممكنة التطبيق، مع عدم استحالة تحقيقها، ويمكن للمراهق على أساس من هذا التفكير أن يتصور بيتاً مثالياً، ومجتمعاً مثالياً، وأمة مثالية، لكنه يصطدم بالواقع الثقيل المعقد. وهذا الخلل في الاستفادة من خاصية التفكير المجرد والتصور نشأ عن فقد الخبرة، فالمراهق يملك القدرة على التجريد والتصور، لكنه يفقد الخبرة، والتجربة، والرصيد العلمي الواقعي، الذي يتكون من احتكاك الفرد بظروف الحياة المختلفة، ومن اختلاطه بأصحاب الخبرة والمراس، الذي يساعده على الواقعية ويمكن أن نمثل هذه المشكلة التي يعيشها المراهق بالمعادلة الآتية:

التفكير المجرد + فقد الخبرة = المثالية أو النموذجية .

ولأن المراهق يكون مثالياً في التفكير - أحياناً - وتصدر عنه أراء مثالية، ومطالب نموذجية، تواجه بالرفض والإهمال من قبل الوالدين، أو المجتمع - ينشأ عن ذلك صراع بينه وبين الأسرة، أو بينه وبين

المجتمع، أو ينشأ الاغتراب[1] الذي يؤدي إلى سلبية الشاب وتشاؤمه. ويمكن أن نمثل هذه المشكلة بالمعادلة الآتية:

آراء ومطالب مثالية + رفض مستمر دون بيان = صراع أو اغتراب

الحيرة والنقد: يستطيع المراهق - كما ذكرنا - أن يتصور المواقف المختلفة قبل حدوثها، ويستطيع عند مواجهة المشكلات أن يدرك الوجوه المختلفة لها، والبدائل المتعددة لحلها، وعندما يواجه مشكلة ذات بدائل متعددة في حلها لابد من اتخاذ قرار لتحديد الحل واختياره، وإذا وُضِعَ في الاعتبار فقدُ الخبرة، مع طبيعة المراهق الانفعالية - كانت هذه مشكلة بالنسبة له، فهو لابد أن يختار، ولابد أن يعرف التعليل لاختياره هذا الحل دون ذاك. ومن هنا تنشأ مشكلة الحيرة بين البدائل، وموجة الشك والتردد، والاتجاه للنقد والتمحيص فيما حوله، حتى في بعض المسلمات التقليدية الاجتماعية - باحثاً عن الحكمة من ورائها، ومناقشاً لوالديه، أو معلميه في مواقفهم، وفي اتخاذهم للقرارات، وفي اقتناعهم بالمسلمات. ورغم ما يواجهه المراهق من حيرة بين البدائل إلا أنه ينزع إلى اتخاذ القرار بنفسه، واختياره الحل الذي يقتنع به، لكنه قد يُخْفِقُ في كثير من الأحيان، ويفشل ما لم تتم إحاطته بوسط يساعده على اتخاذ القرار المناسب، بطريقة غير مباشرة، أو بطريقة مباشرة غير ملزمة .

والمراهق يستطيع استيعاب الرموز المركبة، أي أن بإمكانه أن يستخدم الرمز لرمز آخر، فإذا رمز للرمز «١» بـ «س» ورمز للرمز «٢» بـ «ص»

---

(١) الاغتراب: ما يسيطر على الشاب من يأس واحباط ورفض للمجتمع ينشأ عنه العزلة وعدم الثقة بالناس. أنظر محمد عماد الدين إسماعيل: النمو في مرحلة المراهقة ١٧٩-١٨٠ .

فإن المراهق يستطيع معرفة أن «س» زائد «ص» يساوي «٣». وهذا يؤدي إلى أن يصبح المراهق قادراً على التفكير في ذاته، وهو ما يمهد لقدرة المراهق على تأمل ذاته، وأحواله، والتفكير في سماته، وصفاته، ويدعوه لنقد الذات، أو الاعتداد بها، كما أنه يستطيع تكوين فكرة عن ذاته، وطاقاته، وميوله، وحاجاته، ولا يتقبل رأي الآخرين فيه بسهولة، فهو يرى أنه قادر على معرفة نفسه، والتعمق فيها والحكم عليها. ويدّعي أنه لا يحتاج إلى رأى الآخرين. وقد يدعوه ذلك إلى رفض توجيهاتهم، ونصائحهم، أو إلى قبولها مع عدم القناعة بها، خصوصاً عندما تملى عليه، أو عندما تصدر من سلطة لا يقوى على رفض أوامرها. ولبروز قدرة المراهق على التفكير والتأمل في النفس والذات ينشأ أحياناً الادعاء بأن الراشدين لا يفهمونه[1]، ولا يدركون مرحلته، ومعاناته، وأنهم أبعد الناس عن مشاركته الفكرية، والوجدانية، وأكثر الفئات جهلاً به، وتخبطاً في تفسير توجهاته، ومسالكه. وهذا النوع من التفكير - حتماً - لم يكن موجوداً في مراحل الطفولة، والصبا فهو من خصائص مرحلة المراهقة، التي تتسم بالتغيرات البالغة في مستوى التفكير، ونوعيته .

والمراهق يخرج من التفكير السلبي التبعي إلى التفكير الإيجابي الباحث عن المسؤولية، والمتفحص لذاته، ومقامه، وسمعته، إنه يتساءل: ما هي صورتي عند الناس؟ بماذا يحكم علي الآخرون؟ هل أنا كبير بالفعل؟ ولماذا لا أقوم بمهام الرجال؟ هل أنا كبيرة بالفعل؟ ولماذا لا أقوم بمهام النساء؟

---

(١) أنظر مصطفى سويف: الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي ص٢٣٢، ٢٣٣ .

هل أحمل صفات الكبار؟ هل أنا مقبول عند الجنس الآخر؟ وما الذي يجعلني مقبولاً؟ ما هي عناصر القبول والرفض الاجتماعي؟ وكيف أقوم بالعمل المناسب؟

إن لدى المراهق مستوى من النضج العقلي، يمكنه من الشعور بالهامشية عندما يكون مهملاً منبوذاً، ومن الشعور بالقيمة عندما يكون ممكَّناً مسؤولاً. وهو يستطيع أن يدرك إدراكاً عالياً مدى ارتباط صورته عند الناس. بمهماته، وأعماله، ومسؤولياته، وممارساته. وهذا مؤشر مهم على إيجابية تفكيره، وتفتح هذا التفكير على الحياة .

ومما يتميز به المراهق إدراكه التام لمفهوم الزمن، وقدرته على التفكير المستقبلي إضافة للتفكير الآني، فالمراهق لا يكون أسير الحال مشدوداً إليه، كما هو حال الطفل دون سن العاشرة. إن عقلية المراهق تتمكن من فهم الأبعاد الزمنية: الماضي والحاضر والمستقبل. وتستطيع ذاكرته استدعاء الماضي، كما تستطيع التفكير في المستقبل – ما قرب منه وما بعد – بالتحديد وبالتعميم، فهو يدرك معنى الأيام، والأشهر، والسنين، والقرون. ويدرك معنى بداية الحياة، ونهايتها ويدرك مفهوم الدنيا والآخرة. ويفهم الوعد والوعيد والأمل والطموح، والوسيلة والغاية، والمرحلة والنهاية، إلى غير ذلك من المفاهيم المرتبطة بالزمن وأبعاده .

وهذا الاستعداد يؤدي عادة إلى الفهم الصحيح لكل هذه المعاني دون لبس أو غموض. وليس كحال الطفل الذي يفهم هذه المعاني فهماً خاصاً به، مختلفاً عن مفهموم الكبار، نظراً لمحدودية استعداده العقلي. كما أن هذا الاستعداد هو من المهيئات التي تدعو المراهق للتساؤل البعيد عن الكون، والحياة: أهدافها وأسبابها. وعن الإنسان: غاياته، ووظائفه، ونهايته.

كذلك هو من المهيئات التي تدعو المراهق للتفكير بالمستقبل، وتخيله، والتخطيط له، والانشغال بذلك. بل وتمكنه هذه الاستعدادات - أحياناً - من مواجهة الآخرين، والتصدي لهم عندما يريدون التخطيط لمستقبله بمعزل عن رأيه، ووجهات نظره كما يفعله كثير من الأبناء في مواجهة الآباء. ويتضمن التفكير في المستقبل الصورة المستقبلية لحياته، وطبيعة عمله، أو نوع مهنته، وشريك حياته - وهو من أهم الموضوعات - ومكانته في الأسرة، وفي المجتمع. ولدي المراهق استعداد أوسع من ذلك يمكن أن يتضمن التفكير المستقبلي في أحوال مجتمعه، ومستقبل أمته، ومكانتها بين الأمم، والعمل للنهوض بها، لتحقيق مستقبل زاهر. ولا يسلم المراهق من المثالية في التفكير، نظراً لقلة خبرته، وقصر تجربته، مما يصيبه بالاحباط، وخيبة الأمل أحياناً[1] .

انفعالات المراهق

هل تظهر موجات الغضب عند المراهقين أكثر من غيرهم؟ ولماذا يتم التعبير عنها بالانفعالات الشديدة، أو المباشرة، كالمصادمة، والمضاربة، والتحدي، والتراشق اللفظي، والاستعراض الجسمي؟ ولماذا يتسرع المراهق في اتخاذ القرارات، وفي الحصول على المطلوبات؟ لماذا العجلة والسرعة في ممارسة الأعمال، واقتناء الحاجات، وتنفيذ المهمات؟ هل يحزن المراهق ويغتم؟ وهل تصيبه الكآبة؟ وهل يلجأ إلى العزلة، والانطواء؟ وهل يُحِسُّ بالغربة، والهامشية، والدونية - أحياناً؟ ولماذا؟ .

لماذا يفرح المراهقون بشدة عندما يفرحون؟ ولماذا يتشنجون عندما

---

(١) فصلنا ذلك فيما سبق عند حديثنا عن المثالية .

يُشَجعّـون؟ ولماذا يسرفون عندما يمدحون؟ ويُقْذِعون؟ عندما يهجون؟ هل صحيح أن الحب والغرام إنما يغلب على فترة المراهقة؟ وأن الحب والهيام، والتعلق بالجنس الآخر هو ظاهرة المراهقة، وقلَّ من لا يمر بها - من الناس - فمُقِلّ ومكثر؟ لماذا يجد انفعال الحب والتعلق عند المراهق تمكيناً، ويستولي على لبه ومشاعره، ويستولي على فكره ومخيلته؟ ولماذا أحلام اليقظة؟ والجنوح إلى الخيال؟ لماذا يسرح المراهق كثيراً على مقعده وفي السيارة وعلى فراشه وبين الناس أو منفرداً لماذا الاعجاب والتعلق بالنماذج الاجتماعية الشائعة، كنجوم الفن، والرياضة، والمغامرات؟ ولماذا الاقتداء بها، والدفاع عنها، والمعاداة والمؤاخاة من أجلها؟

أسئلة كثيرة جداً تلك التي تتناول انفعالات المراهقين، وقد لا تتوفر الإجابة عليها كلها في الدراسات، والأبحاث النفسية الحالية، ويمكن تلخيص أبرز المعالم في انفعالات المراهقة، وما تتميز به عن غيرها من المراحل التي يمر بها الفرد - فيما يأتي:

١ - **غلبة الخوف والقلق**: فالمراهق غالباً يخاف على ذاته، ومستقبله، ويخشى من احتمالات الفشل والنجاح، ويشعر بعدم الاستقرار نظراً لعدم الثبات على شيء، ولفقد الرؤية الواضحة، وللغموض الذي يكتنف طريقه الجديد عليه. يشعر بمشاعر الرجال، ويملك بعض صفاتهم، لكنه لم يسلك طريقهم من قبل، فهو في بداية الطريق الطويل يقلق ويتساءل: ما هو العمل؟ وما هى الوظيفة؟ وما هو الدخل؟ من سيشاركه حياته؟ ما موقعه ومهمته؟ هل سيفشل أم سينجح؟ وما هى الضمانات؟ ماذا سيقول عنه الناس إذا عَجِزَ أو فشل؟ وكيف سيواجه الحياة مع البطالة والهامشية؟ وقد يخاف المراهق ولا يعرف مم يخاف، حيث يدركه القلق: القلق من

المجهول. ويتوقع أن شيئاً مؤذياً سيحدث له، ولا يدري ما هو هذا الشيء. وقد لا يكون لهذا الشيء وجود أصلاً، فهو مجرد توهم، سببه الافراط في الحساسية، والعاطفة لديهم[1]

٢ - قوة الانفعال: فالمراهق بسبب تكامله العضوي والعقلي - اللذين سبق الحديث عنهما - يملك ما يملكه الكبار من أنواع الانفعالات، ويدركه ما يدرك الكبار من الاستثارة العاطفية والشعورية، فهو يحب ويكره ويهدأ ويغضب، ويتأنى ويعجل، ويجرؤ ويخاف، وهكذا صفات الرحمة، والشفقة، والشجاعة، والأنفة، والإخلاص، والمودة، والعطف، والبر... إلخ .

لكن المراهق تنقصه الخبرة والتجربة، ويستولي عليه التغير السريع المتتابع، فهو من حيث النمو والنضج يعيش في أوضاع وسمات جديدة عليه كل الجدة، ومن حيث البيئة والاكتساب بعد لم تعركه التجارب، ولم تصقله الخبرة، فبضاعته في هذا الشأن قليلة مزجاة، وزاده محدود جداً إن كان له من زاد. ومن هنا فإن من أصعب الأشياء عليه أن يضع الشيء في موضعه، أو أن يعطي كل ذي حق حقه، أو أن يمسك إذا اقتضى الحال الإمساك، ويطلق إذا اقتضى الحال الإطلاق، وشأنه كمن يملك الوسيلة والمادة لكنه لا يجيد استعمالهما بحسب المقتضى والحال. ولهذا فإن المراهق لا يستقر في انفعالاته، ولا يكون واقعياً في التعبير عنها؛ فهو يغضب كثيراً، وسريعاً، ولأسباب حقيرة .

وقد لا يستطيع التحكم في المظاهر الخارجية لحالته الانفعالية، فقد

---

(١) انظر محمد عماد الدين إسماعيل: النمو في مرحلة المراهقة ص١١٧ .

يلقي أو يحطم ما في يده، وقد يمزق ثيابه، ويتلف مقتنياته، وقد يضرب ويسب ويشتم ويهدد. وهو عندما يرغب في شيء يسرع إليه، ويسعى حثيثاً في طلبه، ويتعجل اتخاذ القرارات الخطيرة. بل هو إذا أحب أسرف وبالغ، يتعلق بمن يحب، ويهيم به، ويضحي من أجله، يملك عليه لبه، ويستولي على حاله ومخيلته، وهو حديثه وشغله الشاغل، وهذا سر شيوع الحب والغرام في سن المراهقة. والمراهق إذا أُعْجِبَ بشخص، أو جماعة، أو نموذج - سعى إليه، وجمع الناس عليه، وبذل في سبيله، وبالغ في مدحه، ودافع عنه ونافح، ووضعه في أول مهماته التي لا يساوم عليها، وهذا من أسرار تعلق المراهقين الشديد بالرياضيين، وبالفرق الرياضية، وبأصحاب الفن، والتمثيل، وبأصحاب المغامرات، والسرك، وبأبطال التاريخ أحياناً. ومما يهيء المراهق لذلك ما يتمتع به هؤلاء من الشهرة والظهور، ومن مكانة اجتماعية واعتبارية، بحيث تمثل نماذج مقربة وموثقة يتم الاحتذاء بها والتوحد معها، ويترتب على الضعف في المراهقين، واللمعان في المشتهرين - الميل والتعلق، والإعجاب الشديد، والمبالغة في التأييد والمناصرة، والتشنج. والعكس أيضاً صحيح؛ فالمراهقون يبالغون في الكراهية عندما يكرهون، ويظهرون من المقت والسخرية ما ينبيء عن هذه المبالغة، وانظر في مواقفهم من الفرق الرياضية التي لا يحبونها، أو من الأشخاص الذين يكرهونهم، كبعض مدرسيهم - مثلاً - .

كذلك المراهقون يُغْرِقُون في خيالاتهم وأحلامهم، ويبالغون - أحياناً - في تصور الحياة ومتاعها، ويضعون خططاً مثالية، وهم يجنحون إلى ذلك بسبب استعداداتهم التصورية، وقلة خبرتهم في الوقت نفسه. وقد يقرض المراهق الشعر، أو يكتب في النثر، ويصور عواطفه

وأحاسيسه، ويسطر خياله وسرحاته، فتحس منها العاطفة الجياشة، والحساسية المرهفة، بل وترى الجري وراء عاطفته، والثقة بها، والبناء عليها .

هذه الميزة لدى المراهقين من الاستعداد للاستهواء، وسرعة الاستثارة، وهشاشة الانفعال، والفراغ النفسي المستعد للامتلاء - وبعبارة أخرى: مثل هذه الغزارة في الانفعال، والعاطفة، يمكن أن توجه الوجهة الصحيحة السليمة، وأن تضبط عن طريق محيط تربوي شامل متزن، لتخرج الشاب القوي، الطموح، المنضبط، المتعلق بالمثل العليا، والنماذج الرائعة في تاريخ أمته، وحاضرها. ويمكن أن تستثمر في تربية انفعالاته، ووضعها في الاتجاه الصحيح، ليعرف المراهق: كيف يرحم؟ ومتى يرحم؟ ولماذا؟ كيف يحب؟ ومتى يحب؟ ولماذا؟ كيف يُعْجَب؟ ومتى يُعْجَب؟ ولماذا؟ وهكذا... .

وهذه الغزارة يمكن أن تمهد لبناء شاب ذي عواطف فياضة، متفاعلة مع الحياة، متجهة للخير والاصلاح، مؤثرة في علاقته بالأمة في شتى مستوياتها .

٣ - **الذاتيـــة**: وتعني إعجاب المراهق بنفسه، واعتداده بها، والاعتقاد بأنه محط أنظار الناس، وبؤرة اهتمامهم. ويسيطر على بعض المراهقين الاعتقاد بأن الناس ينظرون إليهم، كما ينظرون هم إلى أنفسهم، فالمنظار الذي ينظر به إلى نفسه هو المنظار الذي يجب أن ينظر منه الآخرون إليه، أو هكذا يجب أن يكون رأى الآخرين فيه، ويجب أن تكون صورته عندهم كما هي صورته عند نفسه. وهذا ناتج عن فقد التوازن الانفعالي

والعاطفي لديه، وعن التحولات الفجائية والسريعة المؤدية للرجولة والأنوثة، مما يشعره بالاكتمال والتمام، وعن قلة الخبرة والتجربة اللتين تساعدان - إذا وجدتا - على الواقعية، وتحجّمان من جموح المراهق وخياله .

ولوجود هذه الظاهرة في المراهَقة نجد المراهق ذا حساسية مرهفة لنقد الآخرين، يتألم من ذلك، ويتوجع، وقد يطوي حسراته وآلامه تلك عن الآخرين. وهذه الحساسية للنقد والرهافة في مواجهة مشاعر الآخرين إنما نتجت بسبب ما يشعر به من خسارة، وخيبة أمل، فيما كان يعتقده عن رأي الآخرين فيه، حيث يجد الذم عوضاً عن المديح، وذكر مثالبة بدلاً من مزاياه، وتسفيه حاله بدلاً من الإشادة بها، وتشويه صورته وسيماه بدلاً من تلميعها والثناء عليها، إن أحلام المراهق وخيالاته وغلبة عواطفه وانفعالاته - تضفي عليه قوة وكمالاً، وفتوة وجمالاً، وتصوره عند نفسه على درجة من الأهمية، والقيمة لا حقيقة لها في الواقع، ولا وجود لها عند الناس، بل إن عكس الصورة هو ما يعتقده الناس عنه؛ فهو مازال صغيراً حقيراً. وهو غير قادر على تحمل المسؤولية وممارسة المهمات الصعبة. كما أن الجنس الآخر قد لا يهتم به، ولا يلقى له بالاً بالدرجة التي يعتقدها أو يظنها، ولهذا السبب يصير المراهق - في بعض الأحيان - ناقماً على والديه، ناقماً على الناس، ناقماً على مجتمعه، وتبدأ العبارات تترى على لسانه، مثل: «لا أحد يفهمني»، «ما يدريكم عني؟»، «أنا أفْهَم منكم»، «أنا أعْرَف بحالي»، «أريد أن لا أجلس إلاّ مع أصحابي؛ فهم الذين يفهمونني»، وتبدأ موجات الغضب والاشمئزاز من مجتمع الكبار، ويشرع المراهق في الممارسات الدالة على هروبه من قضاء الوقت مع والديه، ومن الجلوس في

منتديات الكبار، ومناسباتهم، والضيق والتبرم من تلك المجالس .

هذه الذاتية تعد من الاعتبارات المهمة التي يجب أن تُلْحَظَ عند التعامل مع المراهق، وتربيته، أو عند حلِّ مشكلاته، ومعالجة انحرافاته، فقد تكون هي منبع الحساسية والرهافة، أو الرفض والمواجهة، أو الخيبة والإحباط، ومن ثم العزلة والانطوائية، أو الارتماء في أحضان رفقة السوء، والانقطاع إليهم. وقد تكون هي أيضاً سبب الغرور والعجب، والمثالية، أو الطموح الزائد، أو الإغراق في العناية بشكله وهندامه... إلخ .

مجتمع المراهـق

يتساءل الكبار عن ميولات أبنائهم الاجتماعية بعد سن الطفولة ومقاربتهم للبلوغ: لماذا يزهد المراهقون في التأسي بالكبار؟ ويرفضون سلطتهم ظاهراً أو باطناً؟ ولماذا ينقاد لرفاقه وأصحابه، وينصرف إليهم في مشاعره وتوجهاته؟ ولماذ يلجأ إلى جماعة الرفاق في تحديد ميوله وهواياته؟ وفي تحديد شكل ملابسه وهندامه؟ وفي كيفية قضاء وقت فراغه؟ هل يحتاج المراهقون - فعلاً - إلى الرفقة أو الجماعة، بحيث لا يمكن الاستغناء عنهم، كضرورة صحية وتربوية؟ وما دور الرفقة في نمو شخصية المراهق؟ ولماذا؟ يغترب مع رفقته، وينزوي عن المجتمع، وتظهر عليه أعراض الجُنَاح أحياناً؟ هل يحتاج المراهق إلى التقدير والاحترام من قِبَلِ والديه ورفقته ومجتمعه أم لا؟ وهل يطمح المراهق إلى تحقيق ذاته وتطلعاته بثقة الآخرين به، واعتمادهم عليه، وتحميلهم إياه العملَ والمسؤولية، وما دور هذه الأشياء في صحته النفسية، وفي نمو شخصيته؟ لماذا يمقت بعض المراهقين مجتمع الكبار، ويثورون عليه،

ويخرجون على أعرافه؟ ولماذا يوجدون أعرافاً خاصة بهم في التعامل، والتخاطب، وأنماط اللباس، وفي الاهتمامات والهوايات؟ .

هذه أسئلة كثيرة نحاول الإجابة عليها، أو على بعضها. ويمكن تلخيص حالات النمو وظروفه الاجتماعية عند المراهق فيما يأتي:

حالة المراهق وموقف الكبار: يعيش المراهقون – كما مر – في حالة تبدل عضوي ومعرفي وانفعالي سريع ومتتابع، وهو تغير – بلا شك – يقرب الإنسان من الرجولة، أو الأنوثة، أي من مجتمع الكبار، ويبعد به عن الطفولة، وهذا واضح في التحولات التي تطرأ على القدرات العقلية التي تؤهله للفهم، والمحاكمة العقلية، وتساعده على إدراك الأشياء كما هي في الواقع، وفي القدرة على البحث، والنقاش، وإدراك وجهات نظر الآخرين. وهو واضح أيضاً في التغيرات العضوية، من الزيادة في الطول، والوزن، وظهور الشعر، ونمو الأعضاء التناسلية. كل ذلك يؤذن ببداية رجولته واكتماله، لكن كثيراً من الكبار يرفضون ذلك، أو لا يأبهون به، أو يصادمونه. وهذا التصرف من الكبار يسيء إلى المراهق ويؤدي به إلى خيبة أمل، وشك، أو يؤدي به إلى معاندة الكبار، ونبذ سلطتهم، والارتماء في أحضان الرفقة، ويؤدي به – أيضاً – إلى ضعف الارتباط – أو عدم الاعتراف – بأعراف الكبار، ونظمهم، وإلى الثورة عليها، ومحاربتها باطناً أو ظاهراً .

المشاعر الجماعية: حيث يحس المراهق بالحاجة إلى الانتماء إلى رفقة – أو صحبة أو مجموعة – تشاركه مشاعره، وتعيش مرحلته، يبث إليها آماله وآلامه، وأفراحه وأتراحه، وتبث إليه ذلك، هذه الرفقة أو المجموعة تُعْنَى بأحاسيسه ومطالبه، وتعمل لإشباعها وقد تنجح وقد تخفق. وهذه الرفقة

- أحياناً - تخلص لبعضها ولو في سبيل الشر، وتقوم على التعاون والتكامل. ولا يستغني معظم المراهقين عن هذه الرفقة، لأنها مطلب حيوي، وحاجة نفسية ملحة تقتضيها التغيرات الفجائية، والتحولات الجديدة غير المعلَّلَة، التي لا يجد المراهق الجواب عليها في حال عزلته وانزوائه، ولا يحسن التعامل معها - كما يرى - بمفرده، فيلجأ إلى رفاقه أو أصحابه في مرحلته ومن أبناء سنه[1] .

خصوصيات المراهق: فهو لا يرى أنه كالكبار تماماً وخصوصاً والديه الذين يفترقان عنه في السن افتراقاً كبيراً. ويتجه المراهق إلى أساليب مختلفة - كثيراً أو قليلاً - في نمط هندامه وأسلوب حياته، وموضوعات اهتمامه، وفي أنواع الهوايات، وكيفيات قضاء وقت الفراغ. وهو حساس لمقارنته بكبار السن - في هذا الجانب -، وله منظار خاص لا ينتبه له كثير من الكبار.

تحقيق الذات: إن محاولة تحقيق الذات وظيفة يمارسها الإنسان في شتى المراحل العمرية، كل مرحلة بما يناسبها،وتجتمع كلها في مفهوم واحد هو: أن الإنسان يقوم بالوظائف الملائمة لقدراته واستعداداته، ويمارس الأدوار المناسبة له، والمتوقعة منه، وينتج عن ذلك الشعور بالقيمة والأهمية، والإحساس بجدية الحياة، وغاياتها، أو ما يسمى تحقيق الذات.

والمراهق شاب يعيش مرحلة انتقال من الصبا إلى الرجولة مما يقتضي تغير موقعه ووظيفته الأسرية والاجتماعية: من حيث طبيعتها ومستواها ومقدارها. والمزاهق يبتغي تحقيق ذاته واختبار قدراته وتفريغ طاقاته، وهو يريد أن يَبْلُوَ نفسه بممارسة الدور الاجتماعي، والقيام بالمسئولية. ومرحلته

---

(١) تفصيل هذا الجانب سيأتي عند الحديث عن موضوع الرفقة .

ومستوى نضجه يقتضيان رفض البطالة، ونبذ الهامشية الإجتماعية التي يفرضها الكبار عليه أحياناً. بل إن كثيراً من المراهقين يمقتون التبعية ويكرهون أن يكونوا عالة على غيرهم، إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهم يسخرون داخل أنفسهم من هذا الأسلوب في التعامل. كما أن مشاعر اللوم ومقت النفس تراودهم وهم يرون أنفسهم تبعاً للكبار وعالة عليهم، وقد يموت هذا الاحساس أو يضعف إذا لم يستغل في حينه، بتوجيهه الوجهة الصحيحة، واستثماره في تربية المراهق وتهذيبه .

إن الحاجة إلى تحقيق الذات مطلب نفسي مهم للمراهق، ينبع من داخل نفسه، من أحاسيسه وهواجسه، ومشاعره المدعومة بالتحولات العضوية والمعرفية والانفعالية التي يمر بها جسده وعقله وانفعالاته. وهو لا يحس بالتنفيس عنها إلا إذا قام بالدور الاجتماعي المناسب، وتحمل المسؤولية، حسب مؤهلاته، وقدراته، وطاقاته .

لكن المجتمع الحديث - غالباً - ما يواجهه بنكران شديد، وإهمال بالغ. وغالباً ما تكون مشاعر ومواقف الكبار، كالآباء والأمهات والمدرسين والأخوة الكبار. - مخيبة لآمال المراهقين: قولاً وعملاً. فهم لا يأبهون بأن يحقق المراهق ذاته، من خلال استغلال طاقاته ومنحه للمسؤولية، وعزو الوظائف المناسبة له. بل إن الكبار - أحياناً - يسخرون من المراهقين، ويحتقرونهم أن يقوموا بمثل ذلك.ويتجه بعض الكبار إلى عدم الثقة بالمراهقين والمراهقات، وعدم الاطمئنان إلى ما يتولونه من أعمال، ويُشْعِرونهم بذلك، بطرق مباشرة وجهاً لوجه، وبطرق غير مباشرة من خلال عزلهم عن ممارسة الأدوار المناسبة ومنعهم من تحمل المسؤولية، وصرف المراهقين إلى أعمال هامشية، أو تكميلية، أو إلى أنشطة ترفيهية، من رياضة وفن ورحلات. ويقوم الأعمُّ الأغلب من الآباء بتوجيه أبنائهم

إلى الدراسة وتفريغهم لذلك، والاستغناء بذلك عن توظيفهم أو تكليفهم بأعمال أومهمات تحقق ذاتيتهم، وتُشْعِرهم بالمسؤولية، وبشيء من الاستقلالية وتبْرِزُ شخصياتهم، وتَصْقُلُ قدراتِهم الإجتماعية .

ويقوم النظام الاجتماعي والتربوي الحديث بتطويل فترة الطفولة والاعتماد على الغير حيث لا ينتهي الفرد من التعليم العام إلا في سن الثامنة عشرة، ثم عليه أن يستمر في الجامعة إلى سن الثالثة والعشرين، وهو في كل ذلك تابع، وعالة على المجتمع: مالياً، وثقافياً، واجتماعياً لا عمل له سوى الاستقبال فقط. إن المجتمع بذلك يصادم متطلبات تلك المرحلة وحاجاتها الطبيعية مما يؤدي – أحياناً – إلى انحراف المراهق، أو ضياعه، أو سلبيته، أو إخفاقه في حياته، وفي أقل الحالات يؤدي إلى إهدار طاقاته، وتعطيل حاجاته. وهكذا كلما اصطدمنا بالفطرة، وبطبيعة النفس البشرية – وقع الانحراف. وقد كلف الإسلام الإنسان بالتكاليف الشرعية بإدراك البلوغ – وهو ما يقارب سن الخامسة عشرة –وحمَّله المسؤولية عن نفسه، في عباداته، ومعاملاته، وتصرفاته المختلفة. وقد كان الرسول ﷺ يأذن بالجهاد في سبيل الله – وهو أشق المهام وأصعبها – لمن بلغ الحلم من الفتيان[١] .

* * *

(١) تفصيل هذا الموضوع تجده في الحديث عن الحاجة إلى العمل والمسؤولية .

البــاب الثانــي

حـاجـات المراهـق

حاجات المراهق

مدخل:

بعد هذا التعريف الموجز الشامل بالمراهق، وحالته العضوية، والعقلية، والعاطفية، والاجتماعية - وبعد الاطمئنان إلى أن هناك قدراً من الإلمام بطبيعة المراهقة، وما يحكمها، ويطرأ عليها من تغيرات - تأتي الإجابة على السؤال الذي يطرحه الآباء والمربون وهو: ما الذي يمكن فعله، والقيام به، من أجل توجيه المراهق، وتربيته تربية سليمة، تضمن سلامته، واستقامته، وصحته النفسية، وتؤدي إلى الاستفادة منه في هذه المرحلة، وما بعدها؛ ليكون عضواً فعالاً، ومنتجاً في المجتمع؟ .

إن المراهَقةَ طاقةٌ متفجرة، وقدرات شبه مكتملة، ونشاط يفرض نفسه في الأسرة، والبيئة، إن لم يُوجَّه، ويُستَثْمَر - بالأسلوب الأمثل، والمفيد - ضاعت تلك الطاقة والاستعدادات؛ بسبب الإهمال، أو بسبب الطرق التربوية الخاطئة .

وأمامهذه التحوُّلات والتغيُّرات التي تواجه المراهقين - ممَّا سبقت الإشارة إليه - لابد من بيان الحلّ التربوي والتوجيهي بطريقة واضحة، وبأسلوب عملي، ذي جوانب، وخطوات محددة؛ ليقوم الآباء والمربون بالدور التربوي المناسب .

إن التغيُّرات التي تطرأ على المراهق من تغيُّرٍ في جسده، وتطوُّرٍ في

تفكيره، وتحوُّل في عواطفه، وانفعالاته، ومن تبدُّلات واضحة في تجمعاته، ونَظَرَاتِهِ للمجتمع، والأسرة - تقتضي تحولاً في الفكرة، والمخاطبة، والمعاملة، مع المراهقين.. وهذا التحول يقتضي التعرُّف، والاعتراف، والتعامل مع حاجات المراهقين، ومتطلباتهم، ويقتضي القيام بالإجراءات العملية، والخطوات الفعلية، لتلبية هذه الحاجات، والمطالب، بالأسلوب المناسب الصحيح. ولا يمكن حل مشاكل المراهقين، والتعامل مع قضاياهم، بالهروب منها، أو تجاهلها، أو مصادمتها. كما أنه لا يمكن التعامل معها بتحقيقها، وتلبيتها مطلقاً، دون قيود وشروط؛ إذ أن الطريقين كليهما خاطيء .

ومن المعلوم أن للإنسان حاجاتٍ ومطالبَ لابد من تحقيقها؛ فهو يجوع فيطلب الطعام، ويَغْتَرِبُ فيطلب الاجتماع، ويخطيء فيطلب الغفران .

والمراهق ليس بدعاً من ذلك؛ حيث يُفَاجأ بتغيرات في شخصه، تلحُّ في طلب الاشباع، وبتحولات في قدراته، تتطلب الاستغلال، وبزيادة في الطاقات، لا تستريح حتى يتمَّ التنفيسُ عنها وتفريغها. ولابد من المربي البصير بهذه المطالب، والذي يجيد التعامل السويّ مع تلك الحاجات المتشعِّبة للمراهقين، وكيفيات تحقيقها تحقيقاً سليماً، يعود بالخير على المراهق، ومَنْ حوله .

* * *

حاجات المراهقين ومطالبهم

يمكن تقسيم حاجاتِ المراهقين إلى ثلاثة أنواع:

١ – حاجات نفسية .

٢ – حاجات اجتماعية .

٣ – حاجات ثقافية .

وهذا التقسيم لا يعني الفصل بين هذه الأنواع، بقدر ما يعني التيسير لفهم هذه الحاجات، وكيفية التعامل الصحيح معها. والنفس البشرية كلٌّ لا يتجزأ؛ يؤثر بعضه في بعض؛ فالحركات، والأفكار، والمشاعر، والانفعالات، تتمازج مع بعضها، وتتداخل. والنفس البشرية تتفاعل مع البيئة، والمجتمع، بمجموعها، لا بأجزائها. فالتقسيم شيء يفترضه الباحث، لتسهيل البحث، وللبيان والتوضيح. وهذا ما سيجده القارىء واضحاً في هذا العرض لحاجات المراهقين .

فالمراهق قد تتصاحب عنده هذه الحاجات، أو أكثرها – في وقت واحد؛ فحاجته إلى رفقته، وإلى الزواج، وإلى الأمن، وإلى الشعور برجولته – تظهر في مزيج مختلط متماسك، بحيث لا ينقطع أحدها، ويبدأ الآخر؛ إنها حاجات نفسية، أو اجتماعية، ملتصقة بذات الإنسان، ممتزجة بها؛ كامتزاج الروح بالجسد .

ولذلك فإن هذه الحاجات يرتبط بعضها ببعض، ويهيء بعضها لبعض، وتتعاون – في مجموعها – في بناء شخصية المراهق، واكتمال نموه،

وجعله إنساناً سوياً، متى تحققت له. وقد يعتمد تحقيقُ حاجاتٍ عند المراهق على تحقيقِ حاجاتٍ أخرى؛ وإلا فشلت التربية من حيثُ تريدُ البناء. وهذا يشير إلى أن بعض الحاجات يعد شرطاً في البعض الآخر، وإلا كان تحقيق الحاجات ممسوخاً ناقصاً. ومن هنا ينبغي أن ينتبه المربون من آباء، وأمهات، ومدرسين، إلى ضرورة التكامل في التربية، وأهمية الشمولية فيها. وفي الرسم التوضيحي (١) تقريب لصورة هذه الحاجات من حيث الأنواعُ والترتيب .

فأما الحاجات النفسية، فتشمل: الحاجة إلى العبوية؛ وهى حاجة المراهق إلى عبادة الله، واللجوء إليه، وطلب العون منه.. والحاجة إلى الأمن؛ وهى حاجة المراهق إلى الأمن على نفسه، ومستقبله، والطمأنينة أثناء التحولات، والتغيرات التي تحدث له.. والحاجة إلى القبول؛ وهى حاجة المراهق إلى قبوله، واعتباره، وإلى فهمه على أساس من وضعه الحالي، لا على أساس من طفولته المنتهية، وإلى تقدير رأيه، ووجهة نظره .

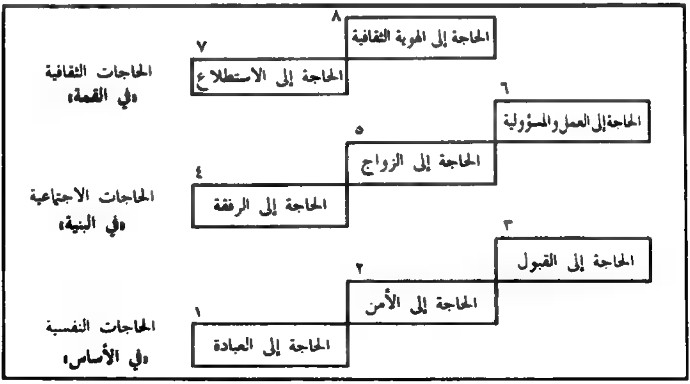

شكل (١)

رسم يبيّن سياق حاجات المراهقين من حيث أنواعها وترتيبها

الحاجات النفسية

أولاً: الحاجة إلى العبادة

إن حاجة الإنسان إلى عبادة الله أمر فطري ثابت؛ وهو ما يحسه الإنسان على وجه الخصوص في حالة الشعور بالذنب، أو في حال الشدة، والخطر، فيتوجه إلى الله خالقه لفكِّ كربته، وحلِّ أزمته وقد وصف الله حال الكفار عند الشدة، بأنهم يتوجهون إليه وحده، ويجأرون بالدعاء؛ قال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ يُنجيِّكم من ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ تدعونَهُ تَضرُّعاً وخُفْيَةً لإنْ أنجانا مِنْ هذهِ لنكونَنَّ من الشاكرينَ. قل اللهُ يُنَجيِّكُمْ منها ومن كلِّ كربٍ ثم أنتم تشرِكون ﴾[1] .

وقال تعالى:

﴿ ألَمْ تَرَ أنَّ الفُلْكَ تجري في البحرِ بنعمةِ اللهِ لِيُريَكُمْ من آياتِهِ إنّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ شكورٍ. وإذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مخلصينَ له الدينَ فلما نجَّاهُمْ إلى البرِّ فمنهم مُقْتَصِدٌ وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلا كلُّ ختَّارٍ كَفُورٍ ﴾[2] .

كما بين الرسول ﷺ أن المولودَ إنما يولدُ على الفطرة؛ أي على عقيدة التوحيد، والميل إليها، وتتوجه نفسه إلى بارئها ومُوجِدِها من العدم،

---

(١) الأنعام: ٦٣، ٦٤ .

(٢) لقمان: ٣١، ٣٢ .

لا تشركُ به، ولا تعبُد سواه. لكن البيئة التي يُربيَّ فيها - لا أصلَ النفسِ وميولَها - هي التي تصرف الوليد يمنة أو يسرة عن أصل الفطرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة[1] فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفي رواية «حتى تكونوا تجدعونها»[2].

ولدى المراهق - في بعض الفترات - توجه إلى التدين، وميول إلى كثير من التفكير والتأمل. .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن تفكير المراهق المتميِّز يدعوه للتساؤل عن القضايا الكونية والنفسية وعن بدايات الإنسان وغاياته، وتتراكم عليه أسئلة كثيرة في هذا الباب. كما أن عواطفه جياشة، وأحاسيسه مرهفة؛ فهو كثير الخوف، كثير الرجاء، سريع الشعور بالذنب والإحساس بالضعف، يتجه إلى المسجد أحياناً، ويحافظ على الصلوات والنوافل، ويكثر الدعاء والأوراد والأذكار، يعطف على الفقير والمحتاج والمظلوم، ويتجه إلى تبني حاجاتهم ومساعدتهم، ويتوق للعمل التطوعي، والتعاون والجهد الجماعي. تجتذبه ساحات الجهاد وتستهويه، وتأخذ بشغاف قلبه، لما فيه من إبراز القوة والبطولة والتضحية، ولما يترتب على الجهاد من نصر الحق والحرية والعدالة، ورفع الظلم، ولما فيه من الاستعراض والحركة والمغامرة .

كل هذا وغيره من الظواهر - تشير إلى ميول المراهق الأكيدة للتدين والتعبد بصوره المختلفة، وهو أمر يلحظه كثير من الآباء والأمهات والمربين على المراهقين .

---

(١) وفي رواية «على هذه الملة» .

(٢) أخرجه مسلم .

وقد أشارت العديد من الدراسات النفسية الميدانية إلى هذا التوجّه والميول، عند المراهقين والمراهقات في البلدان المختلفة[1] وهو موجود عند المراهقين والمراهقات جميعاً، وإن كانت الدراسات تثبت ميلاً أكثر لدى المراهقات، وخصوصاً في بعض الحالات[2]، وهذا الميل - كما أشرنا - أمر تؤيده الفطرة، ويعزِّزه النضج العقلي والمعرفي، الذي يصل إليه المراهق، وتُذْكِيه عواطفه الغزيرة وأحاسيسه المرهفة .

وإذا كانت هذه الحاجة قائمة حيث يُحسُّ المراهق بالذنب، فيحتاج للتوبة والمغفرة. ويُحسُّ بالضعف، فيحتاج للسند والقوة. ويُحسُّ بالغفلة والنسيان؛ فيحتاج للذكرى والموعظة. ويُحسُّ بالخُواء النفسي، فيحتاج لمعنى الحياة وفلسفتها. ويُحسُّ بإلحاح التساؤل عن الحياة والكون والنفس، فيحتاج للجواب الشافي - إذا كانت هذه الحاجة قائمة فلماذا لا يسعى المربون إلى توجيهها وإشباعها؟ .

ولماذا لا يبادرون إلى إرواء عطش المراهقين فيها، واستثمار استعداداتهم هذه؛ للإفادة منها؟ .

إن في المنهج التربوي الإسلامي ما يروي الغليل، ويشفي العليل، من أنواع الشعائر، والأنشطة العبادية: من العقائد، والأقوال، والأفعال - ما يلبي هذه المطالب، وينميها، ويضبطها. ولسنا بحاجة إلى الخوض في تفصيلات البرامج والنماذج التي يمكن أن يطبقها المربي لتنمية هذا الجانب عند المراهقين وتَثْبِيتِ مسالكهم فيه؛ إذ أنها من أوضح الجوانب في التربية

---

(١) انظر لتفصيل أكثر: إبراهيم قشقوش: سيكولوجية المراهقة ص٣٧٥ .

(٢) مثل حالات الانفراد والخلو، ومواقف الإحساس بالقلق على قريب أو عزيز .

الإسلامية. وإنما نشير - باختصار - للتمثيل لا للحصر - إلى بعض المجالات والممارسات التي شرعها الإسلام في هذا الجانب، كما نشير إلى بعض الشروط، والمهيئات المهمة، التي ينبغي وضعها في الاعتبار، عند تنمية الجانب العبادي عند المراهقين .

المجالات والممارسات:

١ - أداء الصلوات المفروضة، والمحافظة عليها، في أجوائها المحددة شرعاً .

٢ - أداء الرواتب والنوافل .

٣ - تلاوة القرآن، والاستماع إليه .

٤ - الأوراد، وأذكار الصباح والمساء، والمناسبات، مع تذكر معانيها وأغراضها .

٥ - ارتياد مواطن الوعظ، والذكرى، والقصص الصادق المؤثر .

٦ - الحج والعمرة، مع الرفقة الصالحة .

٧ - القيام بالتطوعات ذات الطابع الروحي المؤثر مثل:

أ - زيارة المرضى .

ب- زيارة المقابر .

ج- زيارة الصالحين من أهل العلم والورع .

د - دروس حفظ القرآن .

هـ - ذكر الموت وما بعده .

و - حلقات العلم في المساجد .

٨ - الاستغفار والتوبة .

وهناك شروط ومهيئات تسهم في تنمية الجانب العبادي عند المراهق، وتساعد على تيسير التربية، إذا ما رعاها المربي؛ ومنها:

١ ـ أن يكون حث المراهق وتوجيهه إلى هذا الجانب عفوياً، وبطرق غير مباشرة ما أمكن؛ إذ أن المراهقين حساسون للأسلوب الإملائي المباشر، ويمتازون بالاعتداد بأنفسهم واستقلاليتهم، وقد يعاندون أحياناً .

٢ ـ مخاطبة عقول المراهقين وأفكارهم إلى جانب عواطفهم ومشاعرهم؛ نظراً لما يتميز به المراهق من تفتح عقلي، وقدرة منطقية، وحيوية فكرية، تتوق إلى مخاطبة العواطف، والمشاعر الممزوجة بالمناقشة العقلية؛ وهذا هو أسلوب القرآن، في مواضع كثيرة عندما يوجه الناس إلى الدينونة لله وعبادته .

٣ ـ أن يبدأ المربي في مناقشة هذا الجانب والتوجيه إلى ممارسته مبكراً، مع بداية المراهقة أو قبلها .

وقد أثبتت بعض الدراسات النفسية(١) أن استعداد المراهق للاستقبال والاستشارة والاسترشاد بالكبار يكون أكبر في السنوات الأولى المبكرة من المراهقة وهو سن ١٣، ١٤، ١٥ ويتقلص الاستقبال، وتزداد الاستقلالية فيما بعد ذلك .

٤ ـ توظيف قدرات المراهق في التأمل، والتساؤل، والتفكر - حول الكون والنفس والحياة .

٥ ـ استثماره مواقف الضعف والضيق والشدائد والنوازل عند تربية الناحية العبادية؛ فالمراهق ذو عواطف غزيرة، ومشاعر هشَّة، وهو ضعيف التحمل، قليل التجربة، بحاجة إلى السند والقوة، وبحاجة للتعرف على القدرة الإلهية، واللُّجوء إلى الله في الكُرَبِ والشدائد .

---

(١) من ذلك الدراسة التي قام بها الباحث وموضوعها: أفكار الطلاب عن أساتذتهم وأثرها في التفاعل الشخصي بينهما في مرحلة المراهقة، وهي رسالة دكتوراه غير مطبوعة .

ثانياً: الحاجة إلى الأمن

المراهق يعيش فترة حرجة، ونقصد بذلك أنها فترة انتقالية مؤقتة، يحكمها تغيرات سريعة، ومتنوعة؛ فهي غير مستقرة، وهذا الحرج في هذه الفترة يؤثر على المراهق من حيث الاستقرار النفسي، والطمأنينة، والأمن .

ومع أن حاجة الأمن والاستقرار حاجة مهمة للإنسان عموماً، أشار إليها القرآن في مواضع عديدة، وأشار إليها الرسول ﷺ أيضاً في أحاديثه - إلا أن المراهق بسبب هذه الفترة الحرجة المهتزة الهشة - يحتاج إلى الأمن والطمأنينة بقدر ما يعيشه من تَبَدُّلات وَتَحوُّلاتٍ عقلية، ونفسية، وانفعالية، واجتماعية. يحتاج إلى من يبث في رَوْعِه الاطمئنان، والأمان، ويذهب عن نفسه الفزع، والخوف .

ربما يتساءل المراهق عما يحدث في جسده من تغيرات عضوية، ويتساءل عما يحدث من تغيرات في أحاسيسه ومشاعره، وانفعالاته، وعما يحدث له من تبدل في الهيئة، والمواقف الاجتماعية، ويتساءل عما يحدث له من تغير في الجوانب التي تفرق بين الجنسين «الرجال والنساء» يتساءل عن كل ذلك وعن غيره. وقد يدركه الفزع والخوف في كثير من الأحيان؛ حيث يمر بتحولات جديدة وجوهرية في آن واحد، ويجد نفسه في حيرة من أمره؛ كيف يتعامل مع نفسه ومع من حوله؟ وهل ما يفعله

صحيح أم خطأ؟ مقبول أم مرفوض؟ ولفقده الخبرة والتجربة لا يستطيع اختيار الحلول المناسبة، والتوجُهات الصحيحة في كثير من المواقف ونخص بالذكر - هنا - مواقفه تجاه هذه التحولات التي تحدث له: لجسمه، وعقله، وعواطفه، ومشاعره الإجتماعية .

ولابد من إسهام البيئة التربوية ببثّ الطمأنينة في كيان المراهق النفسي، وإشباع حاجته إلى الأمن، والعمل على توعية المراهق بنفسه، بصورة عفوية غير مُتَكَلَّفة، وبأسلوب واقعي صادق ومقنع، وحسب الحجم الحقيقي والفعلي له دون مبالغة أو مَنْقَصَة. وعلى المربين من آباء وأمهات ومعلمين أن يقوموا بإعطاء السكن النفسي والحماية الاجتماعية، والتوجيه والإرشاد المصقولين بالخبرة والتجربة، عند التعامل مع المراهق، ومخاوفه المختلفة، والتي قد يكتمها، أو يواريها عنهم؛ لإحساسه بعدم تجاوبهم، أو لاعتقاده بعدم قدرتهم على مساعدته. والمنهج الإسلامي يركز على إشباع الحاجات الأمنية، والتأكيد على نبذ المخاوف. ونشير هنا إلى بعض أنواع المخاوف، التي تُلِمُّ بالمراهق، وأساليب التعامل معها، ومن أهم هذه المخاوف:

١ ـ التخوف من تحمل المسؤولية، والنجاح فيها .

٢ ـ التخوف من التحولات الجسدية والشكلية .

٣ ـ التخوف والتردد حول الأهداف الكلية والبعيدة للحياة .

٤ ـ التخوف في مواقف الحوار والمواقف الاجتماعية .

٥ ـ التخوف من الحالات العاطفية والانفعالية .

النوع الأول وهو **التخوف من تحمل المسؤولية**. وسنتعرض له في موضع آخر[1] أما النوع الثاني وهو **التخوف من التحولات، والتبدلات الجسدية، والفسيولوجية**، وتغير الهيئة والوزن، والحجم – فإنه يثير أحاسيس المراهق وتساؤلاته ومخاوفه؛ فهو يرى التغيرات الكثيرة المتتالية في حجم العظام، ونمو الشعر، والأعضاء التناسلية، وظهور الطمث عند الفتيات، وتغير الصوت، والتغير في القدرات العقلية .

ولابد عند التعامل مع المراهق تجاه هذه المشاعر من تجنب السخرية، والاستغراب، وعدم استهجان حاله، وما آل إليه في هيئته، وحجمه وشكله، والتخفف من وصفه بالصغر والطفولة والقصور؛ إذ أن وصفه بذلك يشعره باحتقار الآخرين له، واستهانتهم به .

وقد ذم الإسلام هذه الأساليب في مواجهة الناس، والتعامل معهم صغاراً أو كباراً، ومقتها مقتاً شديداً، ووصف فاعليها المصرين عليها بالظلم، ويستوي في ذلك الذكور والإناث، قال تعالى:

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يَكُنَّ خيراً منهُنَّ ولا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تنابزوا بالألقابِ بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ ومنْ لمْ يتبْ فأُلئك همُ الظالمون ﴾[2] .

وعلى الآباء والأمهات – ومن يتولى توجيه المراهقين – أن يتعامل معهم في هذه القضايا بعفوية، لا تكلف فيها ولا استغراب؛ وكأن

---

(١) وذلك عند الحديث عن الحاجة إلى العمل والمسؤولية ص٧٩ .

(٢) الحجرات: ١١ .

ما يحدث لهم من تغيُّر أمرٌ عادي متوقع ومقبول، وأن يتعامل معهم بصراحة وواقعية؛ ليزيل الغموض، والتردد، الذين ينتابان المراهق بسبب هذه التحولات، وأن يربطهم بالسنن الحياتية، والكونية؛ حيث إن هذه التغيرات تحدث لكل الناس دون استثناء، وهو الذي تقتضيه سنة الحياة، كما أرادها الله، وهو الخالق المدبر؛ قال تعالى:

﴿ هُوَ الذي خلقكُمْ منْ ترابٍ ثمَّ مِنْ نطفَةٍ ثمَّ من عَلَقَةٍ ثمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفلاً ثمَّ لِتَبْلُغوا أَشُدَّكُمْ ثمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ومنكمْ منْ يُتَوَفَّى منْ قَبْلُ ولِتَبْلُغُوا أجلاً مُسَمّىً ولَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

ومن جانب آخر على الأبوين تشجيع المراهق، ورفع مستوى التعامل معه، على أساس من هذا التغير النوعي، والكمّي، في التفكير، والطاقة، والقدرة؛ بحيث يشعر المراهق أن تلك التغيرات بدأت تأخذ مكانتها، وموضعها الفعلي، وتقوم بالمهمات المناسبة لها، وهذا الجانب يجعل المربي لا يُعْنَى فقط بالتكليف العملي، والمهني، للمراهق، والمراهقة[2] وإنما يعني - أيضاً - برفع مستوى المخاطبة، والتعامل اللفظي والتوجيهي[3] .

ولقد كان الرسول ﷺ يخاطب الشباب في هذه المرحلة، ويتعامل معهم بما يشعرهم بالقيمة، والمسؤولية، وبما يبثُّ فيهم الثقة والطمأنينة، ويكسبهم القوة والاعتبار، بدلاً من التردد والخوف، والهوان والصغار .

---

(١) غافر: ٦٧ .

(٢) المقصود من التكليف العملي والمهني للمراهقة ما يناسبها من أعمال البيت، وواجبات الدراسة، أو العمل مع مجتمع النساء .

(٣) فلا يستعمل التلقين والأمر بقدر ما يستعمل طريق العرض والمناقشة، والأساليب غير المباشرة. وذلك مراعاة لحساسيتهم، وتجنباً لعنادهم .

ونشير هنا إلى طريقة الرسول ﷺ في معاملة الصبيان واعتبارهم؛ فعن أنس بن مالك رضى الله عنه – «أن رسول الله ﷺ مر على غلمانٍ فسلم عليهم»[1]، وعن أنس رضى الله عنه: أنه مرَّ على صبيان فسلم عليهم؛ وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعله»[2] .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتِي بشرابٍ فشربَ منه وعن يمينه غلامٌ وعن يسارِهِ أشياخٌ، فقال للغلام: «أتأذنُ لي أن أُعْطِيَ هؤلاءِ؟ فقال الغلامُ: لا واللهِ لا أُوثِرُ بنصيبِي منك أحداً! فَتَلَّهُ رسول الله ﷺ في يده[3] .

فالرسول ﷺ لا يَحْقِرُ الصبيان، ولا يعرض عنهم، فضلاً عن البالغين؛ فهو إذا مَّر بهم سلَّم عليهم، وقد يُجلسُ الواحد منهم على يمينه، مع وجود الأشياخ الكبار، وإذا كانوا في مجالس الكبار يستأْذنهم في حقوقهم، وينصفهم، ويُشعِرُهم بالأهمية .

وأما **التخوف الذي يدور حول الأهداف الكلية للحياة** فإنه ينتاب المراهق أحياناً؛ نظراً لما يتمتع به المراهق من قدرة عقلية على إدراك الكليات والمجردات، والخروج من أسر التفكير المادي المحدود الذي كان عليه في المراحل السابقةإلى التفكير المنطقي الفسيح. إن تساؤلات المراهقين حول الكون والإنسان والحياة، وتفكيرَهم في ذلك – أمرٌ طبيعي في هذه المرحلة الانتقالية بين الصبا والرشد .

---

(١) رواه مسلم في كتاب السلام .

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان .

(٣) متفق عليه. ومعنى تَلّهُ: وضعه .

ويمكن للمربين أن يُطَمْئِنُوا المراهقين، وأن يستثمروا تلك الاستعدادات النفسية والعقلية لتزويدهم بالقضايا الكلية والأهداف البعيدة للكون والحياة والإنسان، وأن لا يدعوا المراهق نهب الأفكار المستوردة أو الآراء الفجَّة التي يتلقاها من أي جهة أو مصدر. كذلك لا يَدَعُوهُ يستقي الإجابة من أصحابه ورفاقه؛ إذ أنهم يعيشون الغربة نفسها، وفاقد الشيء لا يعطيه، ما لم تكن رُفْقَةٌ صالحة قد اكتسبت الإجابة من قبل.

والنموذج الإسلامي هو أعظم نموذج تعامل مع هذه القضية الحرجة والخطرة في حياة الشباب؛ فأشاع الطمأنينة في جنبات المراهق، وأزال الغامض، وكشف المخاوف؛ بإحالة المراهق إلى إجابات محددة وواضحة وتزويده بأفكار أساسية وكلِّية عن الحياة: فلسفتِها ووظائفها وغاياتها. وكلَّفه بأنشطة وأعمال تتناسب مع تلك الإجابات. هذه الأفكار الأساسية والكلية عن الحياة والكون تتمثل في أركان الإيمان، وما يتشعب عنها من المفاهيم العقدية الفاعلة والمؤثرة في حياة الإنسان، وقد تعلَّمها ووعاها وتشبَّع بها صغار الصحابة، مثل كبارهم[1].

وأما التخوف من مواقف الحوار والمواقف الاجتماعية فهو أمر يشيع في هذه المرحلة، بسبب رهافة شعور المراهق وحداثة نضجه، وبسبب قلة التجربة والخبرة، خصوصاً في أوساط بعض الأسر التي تلجأ إلى

---

(١) مثل علي بن أبي طالب ومصعب بن عُمَيْر وعبد الله بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن الزبير ورافع بن خُدَيْج وسَمُرَة بن جُندُب وعامر ابن أبي وقاص وغيرهم.

احتقار الفرد في مرحلة الطفولة، وتمارس عَزْلَه عن مجتمع الكبار، وعن المناسبات الاجتماعية، والمواقف المشهودة، حيث لا اعتبار للأطفال ولا قيمة، بل هم مصدر الإزعاج والعبث والتشويش.

ويحسُّ كثير من المراهقين بالتردد، والاضطراب، في المواقف الاجتماعية، والمناسبات، وفي مواقف الحوار والخطابة والمواجهة، وقد تسقط الأشياء من أيديهم، أو تظهر علامات الحياء على وجوههم، أو التعثُّر في الكلام، والمحادثة، أو علامات الخوف من الموقف؛ كاحمرار الوجه، وتصبب العرق، أو رفض مواجهة الموقف والانسحاب منه، أو الابتعاد عن حضور الولائم والتجمُّعات، والانصراف عن الخدمة والمشاركة فيها .

إن هذه التخوفات التي تواجه المراهقين، أو تكون امتداداً لأحاسيسهم، في الطفولة والصبا لا تنقطع إلا بتربيتهم على مواجهة المواقف، وعلى الشعور بالطمأنينة، والعفوية، في المناسبات المختلفة .

ومن أهم الطرق لذلك أن يمارس المربون من آباء وأمهات ومعلمين – تدريب المراهقين على الحوار، والمناقشة، وتبادل الآراء معهم، وتعويدهم على عرض وجهات نظرهم، وبسطها إن وجدت، وأن يقوم هؤلاء بتعريض الشباب للمواقف المختلفة، والمناسبات الإجتماعية، وتشجيعهم على المشاركة والمبادأة، بما لا يتعارض مع الآداب الإسلامية، من احترام الكبار، والاستئذان، والتواضع، ونحو ذلك .

ولا بأس أن يفتعل المربون بعض المناسبات والمواقف للتَّعْوِيد والتدريب، عند فقد الجو المناسب، أو الموقف الواقعي.

ونحن هنا نذكر بعض النماذج لجرأة الشباب، ومشاركتهم، من ذلك

ما رواه البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما – وكان دون الحلم – إنه قال: كان عمر رضى الله عنه يدخلني مع أشياخِ بدرٍ؛ أي في المشورة – فَكَأَنَّ بعضَهم وَجِدَ في نفسه، فقال: لِمَ يُدْخِلُ هذا معنا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال عمر: إنه حَيْثُ قد علمتم! فدعاني ذات مرةٍ فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريَهم. قال: ما تقولون في قولِه تعالى: ﴿ إذا جاء نصر اللهِ والفتحُ ﴾؟ فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمدَ الله ونستغفرَه إذا نصرنا وفَتَحَ علينا، وسكت بعضُهم فلم يقلْ شيئاً. فقال لي: أكذلك تقولُ يا ابنَ عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقولُ؟ قلتُ: هو أَجَلُ رسولِ اللهِ ﷺ – أَعْلَمَهُ لهُ؛ قال: ﴿ إذا جاء نصر اللهِ والفتح﴾ وذلك علامة أَجَلَكَ ﴿ فسبحْ بحمدِ ربِّكَ واستغفرْه إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر رضى الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول .

ومن مجالس عمر بن عبدالعزيز في أول خلافته ما روي عن وفد الحجازيين؛ فقد دخلت عليه وفود المهنئين من كل جهة، فتقدم من وفد الحجازيين للكلام غلام صغير. فقال له عمر: ارجِعْ أنت وليتقدم من هو أسن منك!! فقال الغلام أيد الله أميرَ المؤمنين، المرء بأصغيره: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر – يا أمير المؤمنين – بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا!! فتعجب عمر من كلامه وأنشد:

تعلَّمْ فليس المرءُ يولَدُ عالماً ... وليس أخو علم كَمَنْ هو جاهلُ
وإنّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندَهُ ... صغيرٌ، إذا التَفَّتْ عليهِ المحافلُ

ومن مجالس هشام بن عبدالملك، ما روي من أن القبائل قدمت على هشام عندما قحطت البادية في أيامه، ودخلوا عليه، وفيهم «درواس بن

حبيب» وعمره أربع عشرة سنة، فأحجم القوم، وهابوا هشاماً ووقعت عين هشام على «درواس» فاستصغره؛ فقال لحاجبه: ما يشاء أحد أن يصل إليَّ إلا وصل، حتى الصبيان؟! فعلم «درواس» أنه يريده[1]، فقال: ياأمير المؤمنين إن دخولي عليك لم يُخِلّ بك شيئاً ولقد شرَّفني، وإن هؤلاء القوم قَدِموا لأمر أحجموا دونه، وإن الكلامَ نَشْرٌ والسكوتَ طيّ ولا يُعْرَفُ الكلامُ إلاَّ بنشره. فقال هشام: فانشر لا أبالك!! وأعجبه كلامه، فقال: يا أمير المؤمنين أصابتنا ثلاث سنين: فسنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة نَقَتِ العظمَ، وفي أيديكم فضول أموال، إن كانت للهِ ففرقوها في عباد الله المستحقين لها، وإن كانت لعباد الله فعلامَ تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم؛ فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين، واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة للجسد إلا به. قال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً، وأمر أن يقسم في باديته مائةُ ألفِ درهم، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم .

فقال: يا أمير المؤمنين: أرددها إلى أعطية أهل بيتي، فإني أكره أن يعجز ما أمر لهم به أمير المؤمنين عن كفايتهم. فقال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟ قال: ما لي من حاجة دون عامة المسلمين»[2] .

فانظر إلى هذه النماذج التي تُبرِزُ أهمية تربية الشباب على المبادأة، والمشاركة في المناسبات، وتعويدهم على الحديث والحوار، والسؤال والجواب، والارتجال، والخطابة في المقامات الملائمة .

وليس من المجدي – في التربية – الإسكات الدائم للصبيان والشباب،

---

(١) يريده: أي يقصده .

(٢) انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق ٦/٦٠ .

وكتم أنفاسهم وتسفيه أحلامهم، كما أنه ليس من المجدي تعليم الحياء والتعويد عليه في غير محلّه، فلا يلبث أن يُصْبِحَ حائلاً بين الشباب ومشاركتهم في المواقف والحالات المناسبة؛ وقد روى البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - وكان دون الحُلُم - أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشجرِ شجرةً لا يسقُطُ ورقُها، وإنها مثل المسلم، فحدِّثُوني ما هي؟ فوقع الناسُ في شجرِ البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلةُ، فاستحييت. ثم قالوا: حَدِّثْنا ما هى يا رسول الله؟ قال هى النخلة - وفي رواية: فأردت أن أقول: «هى النخلة» فإذا أنا أصغر القوم. وفي رواية: «ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما قمنا حدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكونَ قلتَها أحب إليّ من أن تكون لي حُمُرُ النَّعَمِ» .

ومما ينبغي مراعاته تلافي المواجهة مع الشباب في مرحلة المراهقة، بل يجب أن يقادوا عبر الاقناع، والحوار، والمناقشة الحرة. والحوار البناء هو الأسلوب الأمثل في بناء العلاقات بين المراهقين والكبار .

وقد يلجأ كثير من الآباء إلى انتقاد أبنائهم والسخرية والاستهزاء بهم، ولمزهم، ونبزهم بالألقاب؛ بسبب فشلهم في المواقف الإجتماعية، وتعثرهم في المناسبات، أوبسبب تخوفهم وترددهم، وانسحابهم. وهذا الأسلوب لايعالج المشكلة، بل يزيدها تعقُّداً واستفحالاً؛ إذ أنه اتجاه سلبي في المعالجة، لا يعطى البديل، ولا المجال، ولا المعالم الضرورية لتغيير الحالة والموقف.

وأما **التخوف من الحالات العاطفية والانفعالية** في مرحلة المراهقة فإنه ينتج من التغير العضوي «الجسدي» والعقلي الذي يصاحبه تغير في مشاعر المراهق والمراهِقة حول الرجولة والأنوثة، وحول النظرة الاجتماعية،

وموقف الأسرة والأقارب منهما كرجل أو امرأة .

إن التحولات فى الأعضاء والغدد التناسلية، وأحلام اليقظة التي تدور حول الجنس الآخر، والتفكير في الزواج، ووجود البيئة المكتظة بمغريات الغريزة الجنسية[1] وبمثيرات الغريزة العاطفية[2] تؤدي بكثير من المراهقين إلى الانحراف الجنسي أو إلى فقد التماسك العصبي والعاطفي. وأقل ما يواجه المراهق من ذلك الانشغال النفسي بمشاعره وأحاسيسه وإضاعة طاقته وتبديد وقته بلا فائدة؛ وكأنه نوع من إحراق الطاقة دون عائد. والمراهق ضعيف السلاح في هذه المرحلة وقدرته الوقائية هشة لينة. فهو يفقد الخبرة والتجربة، وهو بعد لم يتعود على استخدام المحاكمة العقلية والتفرس في المواقف والمظاهر والأحداث التي تواجهه على أساس من النظرة الموضوعية المتعقّلة. ويقرر النفسيون أن هذه الفترة – من بين سائر الفترات تتأثر تأثراً بالغاً بالإغراءات والدعايات، وأن الانسياق العاطفي يغلب عليها .

والمربي باستطاعته – أحياناً – أن يحبس الفتى أو الفتاة عن بلوغ مراده أو بعض مراده؛ فيصدّه عن إشباع بعض عواطفه وشهواته، لكن ليس باستطاعته أن يستمر على ذلك، كما أنه ليس قادراً على إيقاف التغيُّر العضوي والنفسي الذي يعيشه المراهق، وليس قادراً على فرض العزلة

---

(١) مثل الصور الخليعة المتفسخة في المجلات، والتلفزيون، والفديو. ومثل التبرج، والسفور في الأسواق، والأماكن المختلطة كالمستشفيات، والجامعات، والطائرات. وفي المقابل ظهور الرجال بهيئات متكلفة في تجملهم، أو قوتهم، أو شهرتهم في وسائل الإعلام .

(٢) مثل القصص الغرامية في الكتب، والكتيبات المسلسلة، والمجلات،والمسلسلات العاطفية في التلفزيون، وأفلام الحب والعشق في السينما والفديو .

التامة عليه، وإبعاده عن الأجواء المكتظة بالمثيرات. وكل هذه الحلول لا تعد حلولاً جذرية .

لابد للمربي من تربية المراهق على المصارحة والمكاشفة، ولابد من إشعاره بالمشاركة والمعاونة على أساسٍ من تبادل التجربة واستخدام المحاكمة العقلية، ولابد من التربية على المصابرة والمجاهدة. كما يجب على المربي أن يوجه المراهق إلى الحصول على السكن النفسي الحقيقي – وهو الزواج هذا إضافة إلى ما يمكن أن يشتغل به المراهق من أعمال مهنية أو خيرية أو دعوية أو جهادية تحفظ طاقته وتوظّفها .

إن المراهق يعزل أحاسيسه وعواطفه عن الكبار ويستسلم لها بمفرده، فإذا وجد المربي الذي يصارحه ويكاشفه ويتفقد شؤونه ويدرك معاناته أحس بالطمأنينة والاستقرار والأمن، ووجد لعواطفه متنفساً وبادل المربي الرأي والمشورة، وهكذا التربية الإسلامية لم تكن لتوجِد في الفتى شخصيتين مختلفتين: شخصية تتظاهر بالسَّمْت الْحَسَن والاستقامة والثبات، وشخصية باطنة تملؤها العواطف والأحاسيس والتخيلات، حتى إذا سنحت لها الفرصة برزت وعبثت وهتكت وسعت لإشباع شهواتها ونزواتها دون قيد، قال رسول الله ﷺ «إن من أشر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[1] .

فالمصارحة والمكاشفة والتعاون وتبادل الرأي بين المربي والمراهق أساس ضروري لإكساب الثقة وبث الأمن والطمأنينة في نفس المراهق ولتوجيهه توجيهاً صحيحاً في هذا المجال، مجال العواطف والانفعالات. ثم إن المربي

---

(١) أخرجه مسلم .

لابد أن يوجه الفتى أو الفتاة – عبر تبادل الرأي وأسلوب المصارحة – إلى خلق المصابرة والمجاهدة؛ وقد ميز الرسول ﷺ الشاب الذي ينشأ في طاعة الله مقبلاً عليها صابراً عن الشهوات ومجاهداً لدواعي الفتنة والإغراء؛ فأخبر أنه من السبعة الذين خُصُّوا بثواب خاص في موقف القيامة الرهيب العظيم، قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلُّهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم «وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل»[1] كما نوَّه القرآن بمجاهدة نبي الله يوسف عليه السلام – أول شبابه – ومصابرته؛ بملكه نفسه، وإعراضه عن الباطل مع وجود كل دواعي الفتنة وتوفر كل أسباب الفاحشة؛ إلى درجة الإرغام والتهديد لمقارفة الذنب؛ قال تعالى: .

﴿ وراوَدَتْه التي هو في بيتِها عن نفسه وغَلَّقَت الأبوابَ وقالت هَيْتَ لَكَ. قال: معاذَ اللهِ إنه ربي أحسنَ مَثْوايَ إنه لا يفلحُ الظالمون ﴾[2] .

وقال تعالى:

﴿ قالت فذلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه ولقد راوَدْتُه عن نفسِهِ فاستَعْصَمَ ولَئِن لَّم يفعلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكونَنْ من الصاغرين* قال رَّب السجنُ أحبُّ إلَيَّ ممَّا يدعونني إليه ﴾[3] .

ثم إن في سيرة شباب الصحابة – رضى الله عنهم – ما يُرَغب المراهقين في خُلُقِ المصابرة والمجاهدة ويُطلعهم على آثاره وثماره .

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) يوسف: ٢٣ .

(٣) يوسف: ٣٢، ٣٣ .

ومن أهم ما يبعث الاستقرار والأمان العاطفي والنفسي أو ما عبر عنه القرآن بالسكن من أهم ذلك الزواج[1] قال تعالى:

﴿ومن آياته أنْ خلقَ لكمْ من أنفُسِكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعلَ بينَكُم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾[2] .

ويجب أن يُعَوَّدَ المراهقون على تحمل المواقف الانفعالية والتعقُّل في مواجهتها؛ كمواقف الاثارة التي تحدث الغضب والضيق بالناس والتي قد تحمل المراهق - لو لم يُعوَّد على ضبط نفسه - على المشاتمة والمنابزة والمضاربة، كما يجب أن يُعوَّد أيضاً على التَّبصُّر في مواقف الاعجاب والتعلق بالاشخاص أو الأشياء أو الأحداث والتي تحمل المراهق على الانخداع والتقمُّص والتنازل، وأن يُعَوَّد كذلك على التماسك في مواقف الخوف من الأحداث والمصائب،وعلى التَّوَقِّي من مشاعر العجز والجبن والنقص والدونية والتي قد تؤدي إلى الإحباط أو الانهيار أو الحساسية المفرطة. على المربي أن يعوده على كل ذلك وغيره من فضائل الأخلاق وأن يكون قدوة له وسنداً وموجهاً .

* * *

---

(١) تجد هذا الموضوع مفصلاً عند الحديث عن الحاجة إلى الزواج ص: ٦٤ .

(٢) الروم: ٢١ .

ثالثاً: الحاجة إلى القبول

يعد القبول مطلباً نفسياً واجتماعياً، لا يستغني عنه الإنسان؛ فالفرد في وسط البيئة الأسرية والاجتماعية يسعي للحصول على الرضا والمحبة والتقدير من الآخرين، ويكره أن يستهين به الآخرون، أو أن يحقروه، ويحس بألم وضيق نفسي من جراء ذلك، ويسعى لتلافيه ما استطاع.

والمراهق رغم انتقاله من مجتمع الطفولة إلى مجتمع الكبار يظل - في كثير من الأوساط - يحمل سمعة ومعاملة الطفولة، ويصعب على بعض الآباء والأمهات وعلى بعض الراشدين والمربين الرقي بالطريقة التربوية عند معاملة المراهقين والاحتكاك بهم، فهم يباشرون الأوامر والنواهي مباشرة ويشدِّدون عليهم، بل ويحتقرونهم أحياناً .

إن قبول المراهق عند الآخرين ركيزة أساسية لتَقَبُّله - هو - للآخرين، وأخذه بتوجيهاتهم. ولتحقيق القبول وإشعار المراهق به لابد من عنصرين أساسيين: .

الأول: فهم المراهق فهماً جيداً، من حيث تكوينُه الجسمي، وقدراته العقلية، والتحولات الوجدانية، والاجتماعية، وإشعار المراهق بأنه معروف ومفهوم لدى أبويه وأساتذته وموجهيه، ولقد كان رسول الله ﷺ يدرك نفسيات الشباب وصغار السن من صحابته وقدراتهم، ويفهمهم فهماً يستطيع به أن يؤثّر عليهم؛ حتى كان له من القبول والتقدير ما هو معروف؛ فقد كان يخاطب علي بن أبي طالب وهو صغير ويكلفه من

المسؤوليات ما يشعره بالقبول والقيمة عنده ﷺ، وكذا تعامله مع مصعب بن عمير، وعبدالله بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم .

الثاني: تقدير المراهق حسب ما تقتضيه مرحلته، فالاحترام والاعتبار ضروريان لاشعاره بالقبول. والمراهق يكره أن يكون منبوذاً أو مرفوضاً من أهله ومجتمعه ولا يريد أن يعامل معاملة الأطفال لا وزن له ولا قيمة. فإذا تم تقديره واحترامه حسب مرحلته كان ذلك سبباً في إحساسه بالقبول والرضا، وأثّر - بالايجاب - على سلوكه .

إن المنهج الإسلامي يبني العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم على أساس من الاحترام المتبادل، وإنزال الناس منازلهم. ويعمد إلى تأسيس الشخصية المسلمة منذ الصغر على التقدير أخذاً ورداً. ويحمي تلك الشخصية من الاتصاف بعدم المبالاة، وعدم الاهتمام بالآخرين، ومن احتقارهم وانتقاصهم؛ روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره... بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»(١) .

ومن الشرور التي تترتب على احتقار المسلم ما يحدثه ذلك من أثر نفسي وتربوي على الطرفين؛ حيث يشعر الأول بالعُجْب والكبرياء والثاني بالدونية والامتهان، ويتكون الحاجز النفسي بين الطرفين فلا يمكن أن يؤثر الأول في الثاني بحال إذا كان المجال تربوياً؛ كأن يكون ذلك بين الآباء والأبناء، أو بين الأمهات والبنات، أو بين المربين والطلاب. وهكذا فإن تلبية حاجة المراهق إلى القبول تمثل عنصرًا مهماً في حياته النفسية والتربوية يغفل عنها المربون في كثير من الأحيان .

---

(١) أخرجه مسلم .

الحاجات الاجتماعية

أولاً: الحاجة إلى الرفقة

تقع الحاجة إلى الرفقة في قاعدة الحاجات الاجتماعية، التي تضم إليها كلاً من: الحاجة إلى الزواج أو إلى الاقتران بالجنس الآخر بالطريقة الشرعية والفطرية التي تؤدي إلى السكن والاكتمال، والحاجة إلى العمل والمسؤولية، ومن خلالها يحقق الفرد ذاته ودوره في الأسرة وفي المجتمع الكبير وسيأتي الحديث عنهما فيما بعد .

الإنسان اجتماعي بطبعه، والتعارف بين الناس وما يترتب عليه من مصالح عظيمة في تعاونهم وتزاوجهم وتآلفهم أمر قائم مشهود، قال الله تعالى: .

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] .

والصحبة نمط علاقة وقالب اجتماعي لا يكاد ينفك عنه تاريخ الإنسان فهو مصدر من مصادر تربيته ومعرفته وأنسه وسروره ومواساته ومعاونته، وهو ذو أثر كبير في حياة المرء النفسية والاجتماعية والثقافية ومن الأمثلة التاريخية المتميزة المبيِّنة لأثر الصحبة ووظائفها صحبة أبي بكر

---

(١) سورة الحجرات: ١٣ .

الصديق لرسول الله ﷺ، والارتباط النفسي والمصيري الذي اقتضته هذه الصحبة الفريدة نظراً؛ لارتباطها بأهداف عالية رفيعة، ترتب عليها أن تعيش الحلو والمر، والسهل والصعب، والغنى والفقر، والأمن والخوف، في خندق واحد، واتجاه واحد، ومعاناة واحدة، وفي أحلك الظروف وأشدها، وفي مواقف الخوف والحزن والغربة. قال تعالى:

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[١] .

وقد كانا في سن متقاربة بينهما سنتان - وكان يجمع بينهما طبع متقارب في العقل والمروءة وبعد النظر، وفي السماحة والنبل والكرم، وفي الشفقة والرقة والعطف .

والرفقة مطلب نفسي لا يستغني عنه الإنسان وخصوصاً في مرحلة المراهقة. وبوجود الرفقة المنسجمة يتم قضاء الأوقات وتبادل الآراء والخبرات وبث الآمال والتشارك في الأحاسيس والمشاعر. وتقوم الرفقة في كثير من الأحيان باعطاء الرأي وبلورة الفكر ووضع الخطة وتنفيذها؛ فهي ليست محض شعوري ونفسي فقط بل هى - أيضاً - ذات بعد عملي وتنفيذي في حياة الشباب. ويتعذر منع الشباب المراهق عن الرفقة أو فرض العزلة عليه، وهو أمر يصطدم مع طبع الإنسان وجبلته، ويحرمه من حاجة نفسية مهمة؛ ولذلك كان السجن الانفرادي عقاباً قاسياً لأنه يعزل الإنسان عن حاجة من حاجاته المهمة، ويحرمه من الاجتماع بالناس، والاختلاط بهم، وبث همومه وأحزانه وأشجانه إليهم. وفي أساليب

---

(١) سورة التوبة: ٤٠ .

الرسول التربوية - ﷺ - ما ينبهنا إلى ذلك، فقد فرض ﷺ على الصحابة الثلاثة[1] الذي تخلفوا عن غزوة تبوك عزلة اجتماعية داخل المجتمع، ومنعهم من تلبية حاجة نفسية مهمة وهي الحاجة إلى الانتماء أو إلى الاجتماع. يقول كعب بن مالك رضى الله عنه في سياق قصته الطويلة عنه وعن صاحبيه الذين تخلفا عن الغزوة «... ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا... فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكّرت لي من نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف...»[2] ويقول أيضاً «... حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ﷺ فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته، فقال الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي»[3] واستمر الثلاثة على هذه الحال التي وصف الله بها نفوسهم من الألم والضيق النفسي والانقباض حتى تاب الله عليهم، وأنزل قوله تعالى:

﴿وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفوا حتى إذا ضَاقَتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسُهمْ وظنوا ألاَّ مَلْجَأً من اللهِ إلا إليهِ ثم تابَ عليهمْ ليتوبُوا إن اللهَ هو التوابُ الرحيمُ﴾[4] .

فانظر إلى أثر العزل الاجتماعي في النفوس، وانظر إلى الحكمة من

---

(١) وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية .

(٢) متفق عليه من حديث طويل رواه كعب بن مالك رضى الله عنه .

(٣) متفق عليه، كما سبقت الاشارة إليه .

(٤) التوبة: ١١٨ .

اجتماع الناس وتآلفهم وتعاونهم وتذاكرهم، وحاجتهم الماسة إلى ذلك .

والمراهق يستوحش كثيراً من العزلة ويمقت الانزواء والانطوائية ما لم تلجئه إليه ضرورة أو يفرض عليه فرضاً. فهو يحس بحاجة داخلية ملحة للالتقاء بأصحابه وأبناء مرحلته، ويشعر أنهم يمدُّونه بزاد نفسي لا يقدمه له الكبار أو الأطفال .

ويتجه المراهقون إلى أقرانهم وزملائهم المقاربين لهم في السن ليُكَوِّنُوا رفقة واحدة تشترك في أشياء كثيرة من أهمها التشابه في التحولات الجسدية والعضوية والنفسية والعقلية والاجتماعية، والتشابه في المعاناة والمشكلات، والتشابه في الموقف من الكبار. هذا إلى جانب الاقتران في المرحلة الدراسية أو نوع العمل أو جهة السكن أحياناً. وينضم إلى ذلك - بعد فترة - وحدة التجربة ونوع الخبرة التي تُكْتَسَبُ من خلال المواقف المختلفة التي تمر بالرفقة والتي يشتركون في تكوينها. وبهذا تُعَدُّ طبقة الاقران أحد المصادر المهمة والمفضَّلة عند المراهقين للاقتداء واستقاء الآراء والأفكار، وتعد هي الأكثر تقبلاً من بين سائر طبقات المجتمع .

ويؤدى الاقتران والتشابه بين الأقران - في كثير من الأحيان - إلى التوحُّد والتعلق بالرفقة بحيث لا يُقَدِّم المراهق عليها أحداً ويربط - غالباً - مصيره بمصيرها ورأيه برأيها. وربما تعصَّب لرفقته ضد أي خطر خارجي يرى أنه يهددها. ومما يميز الرفقة عن غيرها من المؤثرات التي تمد المراهق بالأفكار والمواقف والقدوة والنموذج أمران:

الأول: أن الرفقة اختيارية - في الغالب - فهي علاقة يختارها المراهق لنفسه، فهو الذي ينتقي أصدقاءه ويبني العلاقة معهم برغبته وحسب

ميله، ويتم هذا الاختيار النفسي أو الروحي إما بصورة عفوية حيث ينشأ مع نشأة المراهق خلال معيشته لطفولته أو مراهقته بما فيها من تحولات ومشكلات وتطلُّعات، أو يتم بصورة انتقائية حسبما يتوفر للمراهق من أجواء ومناسبات اجتماعية تجمعه بأبناء مرحلته .

وهذا بخلاف علاقته بوالديه أو أساتذته أو زملاء صفه، فإنها تكون مفروضة عليه. والاختيار نشاط يريح المراهق ويشعره بحريته وذاتيته .

الثاني: الانسجام بين النفوس والأرواح، والتقارب في الخبرات ونوع المشكلات، وهذا أمر يضاعف من أثر الرفقة عليه ويزيد التَّوَحُّدَ والخلَّةَ بين الأصحاب .

وقد بينت الدراسات النفسية أن هناك صوراً متعددة تحكم طبيعة العلاقة بين المراهقين ورفقتهم، وسنتقل على القاريء بالاشارة إلى بعضها نظراً لأهمية الموضوع .

من ذلك ما يراه بعض المتخصصين[1] من أن الشباب الصغار يقاطعون مجتمع الكبار، ويتجهون لتشكيل بيئات وثقافات خاصة بهم، لها لغتها ورموزها، وفوق ذلك لها نظام قيم مختلف عن نظام الكبار. ويضيف بعض الباحثين أن المراهقين يتجهون إلى الشركاء المقربين ممن هم في السنّ نفسه للحصول على الأمن والتأييد في وسط مجتمعات الكبار البعيدة عن عالمهم وأحاسيسهم ومشكلاتهم. وفي دراسة[2] تمت على

---

(١) جيمس كولمان: مجتمع المراهقين (باللغة الانجليزية) (١٩٦٣) .

(٢) روزل كورتز: توجهات المراهق نحو الوالدين والأصدقاء بحث منشور في مجلة «المراهقة» الأمريكية (١٩٧٥) .

(٩٠٥٦) مراهق من سن ١٢ إلى ١٨ سنة تقريباً، من أجل معرفة التغيرات التي تحدث لاتجاهات المراهقين نحو مصادر التوجيه والمشورة، وجد أن هناك انخفاضاً واضحاً في قبول آراء الوالدين وتوجيهاتهم، وهذا الانخفاض ليس على مستوى واحد، بل إن عزوف المراهق عن توجيهات الأبوين يزداد كلما زاد عمره؛ حتى يكون ذلك في ذروته في السنوات الأخيرة من المدرسة الثانوية .

وفي دراسة أخري[١] تمت باستفتاء (٦٢٣) طالباً في سبع مدارس ثانوية تبين أن هناك انخفاضاً في اتصال المراهقين بالراشدين من آباء ومدرسين وغيرهم، وتبين أن انخفاض التفاعل من قبل الراشدين وجفوتهم للمراهقين، وسوء المعاملة، وفقد الملاحظة يؤدي إلى تضاعف اتصال المراهق برفقته وازدياد التعلق والتأثر بها .

وفي دراسة مقارنة[٢] بين فترتين بينهما (١٦) عاماً على طلاب المدارس الثانوية، تبين من الدراستين معاً أن المراهقين يختارون مراجع الاستشارة والتوجيه بحسب الموضوع الذي يواجههم، ففي بعض المسائل يقادون وبقوة بآراء قرنائهم، وفي البعض الآخر يقادون بآراء والديهم؛ فهم مثلاً في المسائل المالية، وفي اختيار مواد الدراسة والتخصص يستشيرون آباءهم أكثر، أما في مجال الهوايات، أو نموذج اللباس، والمشاركة في النوادي ونحو ذلك مثل قضاء أوقات الفراغ، والرحلات،

---

(١) أيكوفتا: (تفاعل المراهقين والراشدين، وعلاقته بتلازم المراهق مع أقرانه). بحث منشور في مجلة «المراهقة» المذكورة آنفاً (١٩٧٥) .

(٢) سيبالد ووايت: (الجماعات المرجعية لأفراد ما بين العشر إلى عشرين سنة). بحث منشور في مجلة «المراهقة» المذكورة آنفاً (١٩٨٠) .

ونوع السيارة، فهم يتبعون رغبات وآراء أصدقائهم. وهذه الدراسة تشير إلى أن الشباب ما قبل سن العشرين لا يتجهون في طلب المشورة والرأي اتجاهاً واحداً صرفاً لا إلى الآباء ولا إلى الأصدقاء كمصدر وحيد. بل هم اختياريون في أخذ الرأي. ويعتمد الأمر على نوع المشكلة والمسألة التي تواجههم، لكن يبقى أن المراهقين يستمدون السلوك والرأي من أصدقائهم في قضايا ومجالات حيوية مؤثرة، تتعلق بأنماط السلوك، والملبس والبرنامج اليومي، والهوايات، وغير ذلك، وكل هذه قضايا خطيرة ومتجدِّدة تحدث أثراً تراكمياً عبر الزمن، تتأسس عليها شخصية المراهق وسماته وطبائعه .

وفي دراسة[1] على عينة من (١٥٦٠) طالباً وطالبة في المدارس الثانوية بمدينة الرياض في المملكة العربية السعودية اتضح أن المراهقين في عمر (١٦، ١٧، ١٨) – وهي مرحلة المراهقة المتوسطة – يعزفون عن استشارة أساتذتهم والاسترشاد بهم. بخلاف المراهقين الأصغر سناً أو الأكبر سناً فإنه يستفيدون من أساتذتهم ومعلميهم. وهذا يشير إلى الاستقلالية التي يطمح إليها المراهقون من وجه، وإلى الغربة والجفوة التي يعيشها المراهقون وسط المجتمع بسبب منهم ومن ذويهم ومدرسيهم من وجه آخر، والتي تؤدي إلى التباعد والتنافر بين الطرفين مما يحول بين المربين – من والدين ومعلمين – وإحداث الأثر المناسب في المراهقين .

وإذا حاولنا أن نتعرف على الأسباب التي تدعو المراهقين إلى تجنب

---

(١) عبد العزيز النغيمشي: أفكار الطلاب عن أستاذتهم وأثرها في التفاعل الشخصي بينهما (١٩٨٥) مرجع سابق .

الكبار والانصراف إلى الرفقة ليستمد آراؤه وأفكاره وأنماط سلوكه منها، وجدنا أن من أهمها:

أولاً: كون الرفقة تغذي حاجة نفسية ملحة يندر أن يستأنس المراهق بدونها .

ثانياً: وجود التشابه في الطبائع والأحاسيس .

ثالثاً: أن الرفقة اختيارية لا يُلْزَمُ بها المراهق، وإنما يحددها باختياره مع مراعاة عوامل تساعد على ذلك مثل الجوار والقرابة والزمالة، وهذا الاختيار يلبي هو الآخر حاجة نفسية عند المراهقين، فهم لا يرغبون أن يفرض أحدٌ عليهم اختياره وآرائه في أصدقائهم، وهو توجه عام في مرحلة المراهقة حيث ينزع المراهق الإستقلالية في الرأي والتصرف، وإلى الاختيارية بين البدائل المختلفة بخلاف الطفل الذي لا يدرك هذه المباديء الاجتماعية ولا يعي قيمتها. ويضيف النفسيون إلى تلك الأسباب لجاذبية الرفقة وبعد تأثيرها في المراهق أسباباً وسيطة بين الاستعداد النفسي لدى المراهق وبين حدوث الآثار السلوكية والثقافية في حياتهم وهي:

١ ـ **المعايشة:** حيث يتأثر المراهق برفقته من خلال المعايشة اليومية والاحتكاك العضوي؛ فيشاهد سلوكهم ويتعامل وإياهم مع الأحداث والمواقف الخارجية وينهجون نهجاً واحداً في مسيرتهم .

٢ ـ **الجماعية:** حيث يكتسب السلوك والرأي قوة جماعية تتمثل في أن الرفقة بمجموعهم قل عددهم أو كثر يجتمعون على الرأي أو يظهرون بنمط سلوكي واحد أو متشابه، والانسان ضعيف بمفرده قوي بأقرانه يجد على السلوك والمشاعر والرأي أعواناً .

٣ ـ **الصراع**[١]: فموقف الأسرة أو المدرسين أو الكبار ـ عموماً ـ

---

(١) انظر محمد عماد الدين إسماعيل: النمو في مرحلة المراهقة ص٧٧-٨١ .

المعارض للمراهقين أو المحتقر لهم والساخر بهم - أحياناً - يزيد من التصاق المراهق برفقته، ويزيد من تأثير الرفقة عليه ذلك أن الصراع يؤدي إلى توحُّد أجزاء الجبهات المتنازعة وتقاربها، والتجابه هنا هو بين مجتمع المراهقين ومجتمع الراشدين .

ويمكن أن نمثل الأسباب الأساسية والوسيطة لقوة جاذبية الرفقة وقوة أثرها على المراهق في الشكل (٢) .

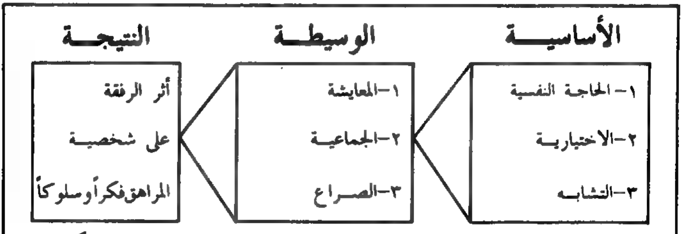

شكل (٢)

يمثل سياق الأسباب الأساسية والوسيطة لجاذبية الرفقة في مرحلة المراهقة

وهذه الأسباب مجتمعة - وهى (١ ـ الحاجة النفسية، ٢ ـ الاختيار للأصدقاء، ٣ ـ التشابه، ٤ ـ المعايشة، ٥ ـ الجماعية، ٦ ـ الصراع) تبدي وجاهة وحكمة التركيز والتأكيد على أهمية الرفيق والصاحب وفعله العجيب في نفس صاحبه وفي طبعه وسماته؛ روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الأرواح جنودة مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1]، وأنت تجد - عندما تنظر إلى الناس والمجتمعات - الصغار مع الصغار والشباب مع الشباب وحتى الشيوخ الكبار في السن مع أشباههم وهنا عامل الائتلاف هو السن، كذلك تجد

(١) أخرجه مسلم .

الأخيار مع بعضهم، والأشرار كذلك، وعامل الائتلاف هو وحدة موضوع الاهتمام، وتجد – أيضاً – أصحاب التجارة الواحدة مع بعضهم، وأصحاب الصنعة الواحدة مع بعضهم، ويجمع بين هؤلاء نوع العمل، وتشابه الاستعدادات والقدرات. والمربي يجد من الأسباب القوية التي تجمع المراهقين مع بعضهم وتؤلف بين نفوسهم الشيء الكثير، ولا يكاد يضاهي مرحلة المراهقة مرحلة أخرى في ترابط الأقران وائتلافهم، وهذا الحديث الآنف الذكر هو من الأحاديث التربوية والدعوية الجامعة التي تفسِّر السلوك وتوجِّه إلى نقاط الضعف والقوة فيه .

والصحبة المتأسسة على مثل هذه الأسباب لابد أن يكون لها أثر جذري في حياة المراهق. روى أبو موسى الأشعري رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير: فحامل المسك إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يَحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»[١] .

والجليس صيغة مبالغة على وزن «فعيل» من كثرة المجالسة والملازمة وقد بيَّن الحديث الأثر البالغ للجليس في مستويات متدرِّجة ومثَّل له رسول الله ﷺ بمثال حسي يتضح فيه التأثير ولو كان قليلاً جداً؛ حيث جعل المثل في المشمومات من الروائح الطيبة أو الكريهة .

ولا شك أن للجليس أثراً تراكمياً متدرجاً على شخصية المرء وأخلاقه. كما أن الجليس الذي تكثر مجالسته وملازمته لابد أن يكون

---

(١) متفق عليه .

محبوباً مقرباً وكذلك حال المراهقين مع رفقتهم. وقد تصل المحبة إلى درجة الخصوصية والخلة؛ حيث تتحد الأهداف والمشاعر ويخلص الود وتتطابق الأمزجة والسمات، فلا يعقد الخليل أمراً دون خليله؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «المرء على دينِ خليلِهِ فلينظرْ أحدُكم مَنْ يخالِل»[1] وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «المرء مع من أحب»[2] وقلّ أن نجد مراهقاً كان له خلة ومحبة وملازمة لرفقة ما إلا ويكون على نهجها وطريقتها، متحداً معها في أفكاره ومسالكه وأخلاقه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم بعد أن يجتاز سن المراهقة الخطرة يبقى في الغالب على ما كان عليه من توجُّهات وصفات، وربما بقيت رفقته كما هي لم تتغير في أشخاصها وسماتها، وهذا ما يحدث في الغالب .

والخليل أو القرين يؤثر على عقيدة الإنسان وقناعاته الفكرية، وهذا من أعمق الآثار التي قد لا يُلْقِي لها كثير من الآباء والأمهات والمربين بالاً إلا بعد فوات الأوان، عندما ينقسم الناس إلى فريقين: فريق مؤمن ملتزم مستقيم؛ يكون جزاؤه الجنة والنعيم، وفريق حاد عن طريق الإيمان والاستقامة؛ فيكون جزاؤه النار والجحيم؛ قال تعالى:

﴿ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْهِ يقولُ ياليتَنِي اتخذتُ مع الرسولِ سبيلاً. ياويلَتا ليتني لمْ اتخذْ فلاناً خليلا. لقد أَضَلَّنِي عن الذكر بعدَ إذ جاءَني وكان الشيطانُ للإنسان خذُولا﴾[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه .

(٣) سورة الفرقان: ٢٨-٣٠ .

ومتى تنبه الإنسان وتنبه المربون إلى هذه الخطورة وإلى هذا المنعطف الجارف المودي بعقيدة المرء ودينه، والمهلك لفطرته ومستقبله - كانت النجاة والسلامة؛ قال الله تعالى:

﴿فأقبل بعضُهُمْ على بعضٍ يتساءلون* قالَ قائلٌ منهمْ إني كانَ لي قرين. يقولُ أئِنَكَ لَمِنَ المصدقين* أءذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعِظاماً أءِنَّا لَمَدِينُونَ* قال هل أنتُمْ مُطَّلِعون* فاطَّلَعَ فرآهُ في سواءِ الجحيمِ* قال تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِين* ولولا نعمةُ ربي لكنتُ مِنَ المحضرين﴾[1] .

والقرين هو الصاحب الملازم[2] وانظر إلى محاولته إغواء المؤمن وإهلاكه وإقناعه بمعتقده وهو التكذيب بالبعث، وانكار القدرة الإلهية على إحياء الموتى .

ولعظم الأثر الذي تحدثه الرفقة، ووضوحه في شخصية وسمات عضو الرفقة - صار المربون والمجربون يعرفون المرء من رفقائه ويقوّمونه بمعرفتهم لأصدقائه وقرنائه؛ وقد ورد في الأثر: «إياك وقرينَ السوء؛ فإنك به تعرف» ونادى الحكماء باستخدام هذا المقياس الدقيق للتعرف على شخصية الإنسان وشمائله حتى قال بعضهم: .

عن المرءِ لا تسألْ وسلْ عن قرينِهِ
فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يَقْتَدي

وهذا يدل - كما أسلفنا - على الأثر التراكمي البالغ للرفيق والصاحب.

---

(١) سورة الصافات: ٥٠-٥٧ .

(٢) انظر الشوكاني: فتح القدير ٣٩٦/٤ .

ويقول آخر:[1] .

يقـاس المرءُ بـالمرءِ ... إذا ما هـو مـاشاهُ
وذو العُـرِّ إذا احتَـكَّ ذا الصحـةِ أعـداهُ [2]
ولـلشيءِ مـن الشيءِ ... مقايـيسٌ وأشبـاه
وللروحِ على الـروحِ ... دليـلٌ حين يلقـاه

لكن ما هي البرامج المقترحة التي تخدم لربط المراهق برفقة صالحة تنفعه وتفيده، وتساعده على بناء شخصية سوية وتدرأ عنه الأمراض النفسية والفشل الاجتماعي والسلبية؟ وهذا البحث لا يطرح صوراً تربوية محددة وملزِمَة؛ فإن المربي البصير من أب وأم أو أستاذ يتهيأ له من الظروف والمناسبات والتيسيرات التي يمكن استثمارها ما لا يمكن حصره والإحاطه به. وحَسْبُ الباحث هنا أن يشير إلى سلسلة من الاجراءات المتعلقة بالوسائل والممهدات لربط المراهق بالرفقة المناسبة. وتتلخص في الآتي:

١ ـ معرفة المربي بشروط الرفقة الصالحة وصفاتها، والتي يمكن أن يربط بها المتربي، ولا يتيسر للمربي أن يحيط المراهق برفقة صالحة ما لم يعرف ما هي الصفات والمحكَّات التي على أساسها يحدد تلك الرفقة. وتفصيل هذا الموضوع ليس هذا موضعه[3] .

---

(١) أبو حاتم بن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص١٠٩ .
(٢) العر: بضم العين الجرب، يقول إن الصديق يعدي صديقه كما يعدي الأجرب الأسلم .
(٣) يمكن الرجوع إلى صفات المؤمنين في أوائل سور: البقرة، والأنفال والمؤمنون، وفي أواخر=

ونشير هنا إلى محكّات عامة يمكن استخدامها عند عملية الإنتقاء للرفقاء ومنها:

أ ـ **الخيرية**: وهي نُزوع الرفيق إلى الخير قولاً وعملاً، وظهور ذلك عليه في سيماه وسلوكه وتوجهاته.

ب ـ **الثقافة الإسلامية**: وهو محك فكري؛ حيث يكون لمن يُتَّخَذُ صاحباً قراءاتٍ شرعية، وقراءات عن المجتمع الإسلامي، ولو كانت قراءات مبتدئة تنِم عن تَوَجُّهٍ واهتمام بهذا الجانب. بخلاف ما إذا كانت قراءة الرفيق في الكتب العاطفية الأدبية، أو القصص الغرامية، أو المجلات الماجنة، أو كتب الطُّرَف والأساطير؛ فإنها مؤشر على السوء له ما بعده.

جـ ـ **الاتزان والتعقل**: حيث يكون الرفيق متزناً في تلبية رغباته وحاجاته. وهذا أمر نسبي؛ لأن الشباب أقل اتزاناً في تلبية حاجاتهم ومطالبهم من الراشدين الكبار. ويظهر الاتزان أو عدمه عند تلبية المراهق لحاجاته الجنسية، والانتمائية، والاستطلاعية، وغيرها.

د ـ الانسجام هو أن يحمل الرفيق في طبعه ومزاجه من الصفات ما يدعو إلى الانسجام معه، والارتياح إليه، والامتزاج به؛ إذ أن طباع الناس تختلف وتتنوّع، وعلى أساس منه تلتقي الأرواح أو تفترق؛ كما بين ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي ذكرناه سابقاً.

= سورة الفرقان، وفي سورة المعارج، وإلى تفسيرها في ابن كثير وفي ظلال القرآن لسيد قطب، ويمكن الرجوع إلى التصنيف النفسي لها في كتاب د. محمد عثمان نجاتي «القرآن وعلم النفس» فصل الشخصية.

هـ ـ **المحيط والبيئة**: ونعني به الوسط الذي يعيش فيه الرفيق من الأسرة والقرابة والجيران؛ فإنه إما أن يكون وسطاً خيراً صالحاً أو وسطاً شريراً منحرفاً، وفي الغالب إن الرفيق يتأثر بذلك وينصبغ بالطابع السلوكي والفكري لذلك الوسط.

٢ ـ الانتباه المبكر والتهيئة المسبقة:

على المربي أن ينتبه لأهمية الرفقة وخطرها على المراهق وأن يكون مستعداً لها قبل أن يصل المتربي سن المراهقة، وقد يضع بعض المربين خططاً ومقترحات قابلة للتطبيق تستعمل عند بلوغ سن المراهقة. وعلى المربي أن يهيء ابنه أو تلميذه قبل المراهقة باعطاءه من المعلومات، والمواعظ، والخبرات ما ينبه ويبصر بأهمية الرفيق الصالح، وجميل أثره، وعظيم شأنه في حياة الإنسان، وما يبصر بسوء عاقبة مرافقة الطالحين، وخطر مجالستهم واتخاذهم أخلاء[١].

٣ ـ التهيئة لوجود الرفقة الصالحة:

وذلك باختيار السكن المناسب الذي تجاوره أسر تحرص على صلاح أبنائها واستقامتهم، وتسعى إلى ذلك، ولا يضير أن يغير الأب مسكنه بسبب سوء الجيران، وفساد ذريتهم؛ لئلا يتعدى ذلك إلى ذريته. وفي الكثير أن المراهق إنما يختار رفقته من أبناء الجيران أو الحي المقارنين

---

(١) ولابد في ذلك من إطلاع المربي على التوجيهات الشرعية في القرآن والسنة وفي كلام السلف والعلماء والحكماء في هذا الباب، والاطلاع على الأبحاث التربوية المتعلقة بأثر الرفقة وعاقبتها، وكيفية استثمارها.

أو المشابهين له في سنه ومرحلته. وقد يضطر الأب إلى تغيير البلد في سبيل تحقيق صحبة صالحة، ودرء صحبة سيئة؛ إذ أن البيئة المجاورة أو المحيطة التي يحتك بها المراهق يكون لها انعكاس مباشر عليه. وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً بذلك الرجل التائب الذي أُمِرَ بتغيير بلده ابتغاء الرفقة الصالحة المصلحة؛ فقد قال رسول الله ﷺ:

«كان فيمن قبلكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهلِ الأرضِ فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتل مائةَ نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجعْ إلى أرضِك فإنها أرضُ سوءٍ. فانطلقَ حتى إذا نصف الطريقَ أتاه الموتُ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم – أي حكماً – فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتِهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» وفي رواية «فكان إلى القرية الصالحة أقربَ بشبر فجُعِلَ من أهلها»[1] .

فأرض السوء تورث السوء، وتفرز السلوك المنحرف، وتجعل

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه .

الفرد يجد على الشرِّ أعواناً، ولا يستطيع المربي في هذه الحال أن يقاوم التيار الجماعي المحفز على السلوك الانحرافي؛ ولذلك كانت نصيحة ذلك العالم المربي أن يغير أرضه من الأرض السوء إلى أرض الصلاح والاستقامة .

وعلى المربي أيضاً أن يختار المدرسة المناسبة من حيث طلاُبها ومعلموها وإدارتها، والتي تُعْنَى باستقامة طلابها وتهتم بأخلاقهم وشمائلهم قولاً وعملاً، ففي الكثير أيضاً أن المراهق يختار أصدقاءه من المدرسة، من أبناء صفه، أو مرحلته الذين يشابهونه في الطبيعة والمزاج. ولا بأس أن يتفحص المربي هذا الجانب بين حين وآخر بالتعرف على المدرسة ومراجعتها، وإعادة النظر فيها، وأن يغيِّر المدرسة إذا اقتضى الحال ذلك، بنقل الطالب إلى مدرسة أخرى .

إن وضع المراهق في بيئة صالحة - من حيث العموم - كالبلد والحي والجيرة والمدرسة هو مفتاح التهيئة لإحداث الرفقة الصالحة والمناسبة؛ ذلك أنه سينتقي أصدقاءه من تلك البيئة، كما يحدث بالنسبة لأغلبية المراهقين عندما يتخذون الأصدقاء والأصحاب. وفي المقابل يسعى المربي إلى أن يُجنِّب المراهق البيئات السيئة بالانتقال عنها وتركها، ولو كان في هذا المشقة، أو خسارة المال، أو تجاوز الاعتبارات الاجتماعية، أو البعد عن الأهل والقرابة، أو غير ذلك من التضحيات. ومبدأ الهجرة هو من المباديء الأساسية والعملية التي شرعت للمحافظة على الدين .

٤ ــ ربط المراهق بالأنشطة الجادَّة والهادفة. وتكون هذه الأنشطة ثابتة مثل الجمعيات التعاونية في المدارس، وجمعيات التوعية الإسلامية،

ومثل المكتبات والحِلَقِ العلمية في المساجد. أو موسمية مثل المراكز الصيفية وأنشطة تحفيظ القرآن في العطل والاجازات، وهذه المواطن تحتضن طلاباً يتسمون في غالبهم بالخلق الرفيع، والاتزان، والنشاط الخيري، والصحة النفسية، والايجابية الاجتماعية، ويَسْلَمُونَ في الغالب من التهوُّر والانحراف في إشباع العواطف والحاجات، ومن الانحراف الخلقي، كتعاطي المخدرات، والمعاكسات، والرياضة المتطرفة.

فإذا سعى الأب إلى ربط ابنه بهذه الأنشطة فإنه يربطه بوسط صالح، تتكون منه الرفقة الصالحة، أو تتقوى إن كانت موجودة. ولقد كَوَّنَ مراهقون كثيرون صداقاتهم الصالحة من خلال تلك الأنشطة والمراكز والجمعيات، وصارت صداقاتهم حميمة، تهدي إلى الخير، وتتعاون على البر والتقوى، وتقوم بواجباتها الأسرية والاجتماعية على خير وجه .

■ ـ الاستعانة بذوي العلم والخبرة:

قد لا يستطيع المربون من آباء وأمهات وإخوة كبار وغيرهم أن يُلِمُّوا بالطرق، والوسائط، والحيل التي تربط أبناءهم بالأصدقاء الصالحين، وقد لا يَقْدِرُون على ذلك، وقد تعوزهم المناسبات والمداخل التي تمهد لهذا الأمر، فعليهم أن يلجأوا إلى المدرسين، وأئمة المساجد، والدعاة، وطلاب العلم، والمربين لمساعدتهم وكشف الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع، ومشاورتهم في هذا الشأن والتخطيط معهم؛ لربط المراهق بالرفقة الصالحة المناسبة، وتجنيبه أصدقاء السوء .

٦ ـ المتابعة غير المباشرة:

وهي تفقد المربي وإطلاعه على أوضاع المتربي من حيث صداقاته

ورفقاؤه دون علمه وإحساسه، ذلك أن المراهقين يرفضون الملاحظات المباشرة، ويمقتون الرقابة، ولا يستجيبون للأوامر والتوجيهات الآتية بطريقة التلقين. وقد يرفض المراهق من يختاره له أبوه من أصدقاء، أو يتقبلهم خضوعاً واستسلاماً دون قناعة، ثم لا تلبث الرفقة أن تنفضَّ، وقد يجابه المربي المراهق فيأمره بقطع علاقة، أو الالتزام بعزلة؛ فلا يزداد المراهق إلا إصراراً على موقفه وتمسكاً بتوجهه ولو بعد حين. إن اتجاه المربي إلى التوجيه العفوي، الذي تحدث آثاره من خلال البيئة، والأحداث العادية الطبيعية، وإلى المتابعة والمراقبة غير المباشرة، ومن ثم اتخاذ الاجراءات المناسبة هو الأسلوب الأمثل في عمل المربي لبناء الرفقة الصالحة للمراهق ولقطع الرفقة السيئة عنه .

٧ ـ التحكم في نظام الأسرة وفي البرنامج اليومي حسب ثوابت متفق عليها .

ولقد دلت الدراسات النفسية المتعددة على أن تثبيت السلوك، والتحكم في أنشطة الإنسان واستجاباته على ضوء برامج مُثبَّتة، تساعد على معرفة الأدوار المتوقعة، والحدود النهائية لنشاط كل فرد، وتساعد على معرفة الحقوق والواجبات المتعلقة بكل طرف .

فإذا علم الابن من خلال البرنامج اليومي الثابت للأسرة أن عليه أن يصرف وقتاً محدداً مع رفقائه؛ فإنه لا يتوقع منه مخالفة ذلك، خصوصاً إذا نشأ عليه. وإذا علم أن الأسرة تتوقع منه اختيار رفاقه على ضوء معالم ومحكات معينة تتبعها

الأسرة مع جميع أبنائها، حسب مراحلهم المختلفة، فإنه في الغالب لا ينِدُّ عن هذا العرف العام الذي اصطلحت عليه الأسرة، وصار يُفْهَمُ من خلال البناء التكويني والبرنامج الثابت للأسرة. وهذا الأسلوب يُعدُّ من أنجح الأساليب في إفهام بعض المراهقين ما يتوقع منهم من صداقات، إلا أن الأسر قل أن تستخدمه الآن نظراً لتميع البرنامج اليومي وغياب المحكات الثابتة للرفض والقبول في الأسرة، ونظراً للتنازلات المستمرة في المعايير الخلقية والسلوكية والاضطراب التربوي الذي تعيشه أسرة اليوم حتى أصبح الجيل لا يعرف جدَّ الأسرة من هَزْلِهَا، وصدقها من كذبها، وقبولها من رفضها .

وهى مشكلة لا يقتصر تأثيرها السيء على موضوع اختيار الرفقة والصحبة للمراهق، بل يتعداه إلى الجوانب السلوكية والنفسية الأخرى؛ كالتربية على الصدق والجد والبر، وعلى حسن الخلق والايجابية والأخوة، وعلى غير ذلك من الخصال الحميدة. وقد أوصانا الإسلام بهذا التثبيت في أخلاقنا ومعاملاتنا وشمائلنا، وذم تعدد الوجوه للشخص الواحد، وذم الشخصية الإمَّعَةَ التي لا تثبت على المبدأ .

٨ ـ إكرام الصحبة الصالحة وتقبلها:

وذلك بتأييد المراهق على رفقته الصالحة واستقبالها، وتهيئة ما يلزم لها، من تيسيرات مادية ومعنوية، وحث المراهق على دعوتهم في المناسبات، والاستعانة بهم، وعونهم عند الحاجة، وتشجيعهم بالسلام عليهم، والسؤال عنهم، وعن ذويهم، ومحادثتهم، وتفقد أحوالهم، ولقد كان رسول الله ﷺ وصحابته يختلطون بالشباب

والصبيان، ويسلمون عليهم، ويكرمونهم، ويشركونهم في الأنشطة والمناسبات .

وتَحَقُّقُ هذا الجانب يزيد من رغبة المراهق في رفقته الصالحة والتأثر بها، ويشعره بالقيمة والاعتبار لديهم، كما أنه يكون أكثر استجابة لوالديه، واحتراماً لهم. والسلبية والجفاء مع أصدقاء المراهق الصالحين تشعره بعدم قبولهم، وعدم الرضا عنهم، فيسعى لمقاطعتهم، أو يتخفى في علاقته بهم، وكلا الأمرين له انعكاسات سلوكية، ونفسية سيئة، من أهمها السلبية، وعدم التجاوب بين المراهق ووالديه .

* * *

ثانياً: الحاجة إلى الزواج

كما يحتاج المراهق إلى القبول والأمن والرفقة فهو يحتاج إلى الزواج بل إن حاجته إلى ذلك أشد. وتشبه حاجته إلى الزواج حاجته إلى الطعام والشراب والنوم؛ لأنها من الحاجات العضوية والنفسية، لا النفسية فقط، فاشباع الغريزة الجنسية مثل إشباع دافع الجوع والعطش والارهاق .

وتشمل الحاجة الاجتماعية والنفسية إلى الزواج أربعة عناصر مترابطة، يتداخل بعضها في بعض، وهي: الحاجة إلى السكن النفسي بالزواج، والحاجة إلى الشعور بالنوع وتحقيقه، والحاجة إلى الإشباع الغريزي، والحاجة إلى تحقيق التكامل بالزواج. وإذا تخلف أحد هذه العناصر، فلم يحققه الزواج فإن الزواج يكون مخفقاً وناقصاً بقدر النقص الموجود في هذه العناصر، وفي كثير من الأحيان يكون فشل الزواج بسبب تخلف هذه العناصر، أو بعضها .

فالمراهق في مرحلة المراهقة يُعَدُّ في بداية الطريق لإقامة حياة أسرية، واجتماعية سوية، وهو يحس بحاجته إلى الجنس الآخر أشد ما يكون الاحساس، بخلاف أي حاجة أخرى مما ذكر سابقاً، ويكون مشغول التفكير، مضطرب المشاعر، كثير التخيُّل حول هذا الموضوع، وتفتقد حياة المراهق – قبل الزواج – جميع العناصر الأربعة المذكورة آنفاً والتي يمكن أن يحصل عليها بالزواج. ويمكن أن نمثل حياة المراهق قبل الزواج

وبعده بالجدول رقم (١) .

المرحلة	الوضع النفسي	المرحلة	الوضع النفسي
المراهق قبل الزواج	١ ـ عدم الاستقرار . ٢ ـ الحاح الغريزة. ٣ ـ ضعف الشعور بالنوع ٤ ـ الفراغ النفسي وعدم الاكتمال.	المراهق بعد الزواج	١ ـ السكن والاستقرار. ٢ ـ الاشباع الغريزي. ٣ ـ الاحساس بالنوع ٤ ـ الامتلاء النفسي والاكتمال.

الجدول (١) يحدد الفرق بين حالة المراهق النفسية قبل الزواج وبعده.

وتؤكد الدراسات النفسية والتربوية[١] أن التحولات الجنسية التي يعيشها المراهق تؤثر على الاستقرار، والنظام الحياتي للمراهق، ويدخل المراهقون في داومة من التفكير والتخيُّل الجامح أحياناً، وفي حال من القلق، والمشاعر النفسية المضطربة، حول جسده وعواطفه ومستقبله، وحول كيفيات إشباع غريزته، واتخاذ شريكة حياته. وتشير الدراسات إلى أن الأمر يزداد حدة في مجتمعات المدن التي تُطَوِّلُ طفولة المراهق[٢]

(١) انظر مثلاً: إبراهيم قشقوش: سيكولوجية المراهقة ص٢٨٧ وما بعدها .

(٢) انظر محمد عماد الدين إسماعيل: النمو في مرحلة المراهقة ص٢١، ٢٢، ٣٠ .

وتؤخر رجولته[1] ويظهر الاضطراب ليس على نفسية المراهق فقط؛ بل يتعدى ذلك إلى الجوانب العملية، في اتخاذ الهوايات، وبرامج قضاء وقت الفراغ، وطبيعة الرفقة المختارة، وأنواع التعامل مع الناس؛ حيث تظهر العجلة واللامبالاة، والتطرف في السلوك، واستعراض القوة... إلى غير ذلك. وهذا بعض ما نعنيه بفقد السكن النفسي الذي يقوم الزواج الناجح بتوفير الجزء الأكبر منه؛ فمن وظائف الزواج أنه يمنح السكن النفسي، قال تعالى:

﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زوجَهَا لِيَسْكُنَ إلَيْها﴾[2] .

حيث خلق الله حواءَ من آدمَ ليسكنَ بها ويألَفَها ويطمئنَّ بها[3]. وهذا الأمر عام في آدم، وفي ذريته؛ كما قال تعالى:

﴿ومن آياتِهِ أنْ خلقَ لكم من أنفُسِكُمْ أزواجاً لتسكُنُوا إليها وجَعَلَ بينكم مودَّةً ورحمةً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4] .

فالسكنُ والمودةُ والرحمةُ تعد مما يترتب على الزواج، وهي نواتج يَقْصِدُ إليها الانسان، ويريد تحقيقها. فالإنسان قبل الزواج يعيش

---

(١) حيث يظل مرتبطاً بالدراسة إلى سن ٢٣ عند نهاية المرحلة الجامعية، دون عمل أو مسؤولية خاصة، ودون زواج أو مسؤولية اجتماعية، ودون استقلالية نابعة من ذلك، مما يشعره باستمرار طفولته واعتماده على الآخرين، وعدم قدرته على تحمل المسؤولية... إلخ.

(٢) الأعراف: ١٨٩ .

(٣) انظر الشنقيطي في تفسيره: أضواء البيان ٢/٣٤٠ وانظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٢٦٣ .

(٤) الروم: ٢١ .

الشتات والاغتراب والقلق، ويفقد الاستقرار الناشيء من اعتماده على والديه في مراحل طفولته، وإحساسه بحنانهما وحمايتهما، ويحس أنه بحاجة إلى شيء آخر يضاف لما سبق، لا يستقر إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئن إلا بتحقيقه، ألاَ وهو الزوج .

وهنا يبدو بعض الحكمة، عندما يُرى المراهق جامح الخيال، مضطرب المزاج، قلق الضمير، كثير التفكير، ذا شطحات في آرائه وتصرفاته فإذا تزوج هدأت نفسه؛ واستقرت معيشته، وثقلت شخصيته، واختفى كثير من جوانب جموحه وهوجه. والآيات السابقة تشير إلى النعمة النفسية، والاجتماعية العظيمة، التي منحها الله لهم، بهذا التآلف والتجاوب[1] بين الجنسين، والذي يكون المراهق بأشد وأمس الحاجة إليه، بل يعد من أول الحاجات الملحة عليه. وقد أشارت دراسات عديدة إلى الفروق بين المتزوجين وغير المتزوجين من حيث الاستقرار، ونوع الاتجاه، والنشاط لقضاء وقت الفراغ، ومن ذلك الدراسة[2] التي قام بها مركز أبحاث مكافحة الجريمة في المملكة العربية السعودية، على عينة من جميع المناطق بلغت (١٩١٨) شاباً، في سن المرا هقة؛ لدراسة الاتجاه العام، الذي يسلكه هؤلاء الشباب في قضاء وقت الفراغ. وقد دلت هذه الدراسة على نزوع المتزوجين إلى الاستقرار، والاتجاه إلى النشاطات الثقافية،

---

(١) لمزيد من الفائدة انظر كلام سيد قطب: في ظلال القرآن ٤٤٧/٦، ٤٤٨ تفسير آية ٣١ من سورة الروم .

(٢) انظر د. شرف الدين الملك: مركز أبحاث مكافحة الجريمة، وزارة الداخلية، المملكة العربية السعودية ص١٠٨، ١٣٤ .

ونزوع غير المتزوجين إلى المسالك الانفعالية[1]، والعاطفية، وإلى الجنوح أحياناً .

أما الحاجة إلى الاشباع الغريزي فتبدو في اكتمال نضج المراهق العضوي، وإدراكه البلوغ بمظاهره المتعددة، من نبوت الشعر، وحدوث القذف، والاحتلام، ونمو الأعضاء التناسلية، والقدرة على الإنجاب، ومن ظهور شعر الوجه عند الذكور، والحيض عند الإناث، وكل هذه الظواهر وغيرها تحدث في الغالب مبكراً؛ أي عند سن الخامسة عشرة أو قبلها، وهى معالم متتالية، تلح على الفتى والفتاة، وتفجأهما، وتؤذنهما وتؤذن أسرتهما بالاستعداد الغريزي، والحاجة إلى تلبيته، وتوجيهه. وتبدأ من هنا عملية الاشباع بطرق سوية، وغير سوية، والطرق غير السوية تختلف في مستويات إنحرافها، وكيفياته، فمن مقتن للمجلات الخليعة والماجنة، ومن قارىء للكتب والقصص الجنسية المكشوفة، ومن متابع للأفلام والمسلسلات الغرامية والعاطفية، ومن مستخدم للعادة السرية، ومن واقع في الفاحشة بأنواعها... وهكذا نجد أن الاشباع الغريزي حاجة ملحة في مرحلة المراهقة، وأن النضج المبكر يقتضي الاشباع المبكر، ويكون ذلك بالزواج المبكر؛ عن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»**[2] .

---

(١) يقصد بالمسالك الانفعالية مثل: معاكسة النساء، والتفحيط، التعصب الرياضي، ومشاهدة الأفلام الخليعة، والتسكع. انظر المرجع السابق ص٧٧.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم .

والزواج المبكر هو الأصل، والطريق الطبيعي الفطري لتلبية الحاجة الغريزية. والشوق، والميل إلى الجنس الآخر - بسبب هذه الحاجة الملحة والأسباب الأخرى - أمر يقعِّده المنهج الإسلامي، ويؤصله، ويبين الأسلوب الناجح في إشباعه وتوجيهه، وقد سبقت الإشارة إلى أن المنهج الإسلامي منهج فطري، واقعي، في كل مطالبه، وتشريعاته .

روى أنس رضى الله عنه قال: .

«جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ؛ يسألون عن عبادةِ النبي ﷺ، فلما أُخبِرُوا كأنهم تَقَالُّوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليلَ أبداً وقال آخر: وأنا أصوم الدهرَ ولا أُفْطِرُ. وقال آخر: وأنا اعتزل النساءَ فلا أتزوجُ أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أَمَا والله إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم لهُ. لكني أصومُ وأفطرُ وأصلي وأرقُدُ، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] .

وأبين من ذلك قول الرسول ﷺ: **«حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساءُ والطيبُ وجُعِلَتْ قرةُ عيني في الصلاة»**[2] .

فالزواج والزواج المبكر إنما هو استجابة فطرية، لتلبية دافع فطري، وحاجة جِبِلِّيَّةٍ ملحة، وهى أشد ما تكون إلحاحاً وطلباً في مرحلة المراهقة .

---

(١) متفق عليه .

(٢) انظر الألباني: صحيح الجامع الصغير، ٨٧/٢ وقد أخرجه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي .

والعنصر الثالث من عناصر الحاجة النفسية للزواج هو الحاجة إلى الاحساس بالنوع؛ ذلك أن رجولة الرجل لا تتم إلا بممارسته لها ولا يكتمل هذا الجانب إلا بالزواج، وهو اقتران الزوج بالزوجة كرجل واقتران الزوجة بالزوج كامرأة. وهذا هو مقتضى الفطرة، فإن الرجل لِما يتميز به من قوة نفسية ومعنوية، ومن مظاهر القوة الجسمية والخشونة، ومن صفات التحمل والحماية، يجب أن يمارس دور الرجولة، والمرأة لِما تتميز به من حنان، وعطف، ورحمة، ومن مظاهر الجمال والرقة والنعومة، يجب أن تمارس دور الأنوثة، وحاجة كل منهما لما في الآخر من صفات النوع قائمة، والرجل - دائماً - يمْقُتُ تَرجُل المرأة، والمرأة دائماً - تَمْقُتُ تَخَنُّث - الرجل. وعندما يتشبه الرجل بالمرأة، أو المرأة بالرجل فإنهما يضادان الفطرة والجبلًة، فيحصل الشذوذ، وتتعطل السنن النفسية، أو تضطرب، ثم تحدث الأمراض النفسية والاجتماعية. وقد نهى الإسلام عن التشبه - تشبه الرجال بالنساء، أو العكس - وتوعَّد عليه أشد الوعيد؛ لما فيه من مخالفة الفطرة، واختلاط السنن، واختلال القواعد التي تضبط سير الإنسان، وتقويض الثوابت النفسية، والاجتماعية، التي تضمن للإنسان المتعة، والطمأنينة والاستقرار النفسي .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ المُخنثين من الرجال والمترجلاتِ من النساء»[1] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجلَ يلبس لبسةَ المرأةِ والمرأةَ تلبسُ لبسةَ الرجلِ»[2] .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه أبو داود .

فسلوك التخنث والترجل والتشبه سلوك شاذ، يصطدم مع الفطرة، ولا يتلائم مع طبيعة الحياة النفسية. والمنهج الإسلامي يريد أن يحتفظ كل جنس بنوعه، وأن يشعر بِتَمَيُّزِه، ويحارب السعيَ لطمس[1] الفطرة، وإماتة الإحساس بها .

لكن الواقع التربوي والنفسي في البلاد العربية والإسلامية يسير بضد ذلك، يسير إلى تمييع هذه الفروق الفطرية والجبلِّية؛ كما تدل كثير من الدراسات الميدانية الاجتماعية والنفسية، واسمع إلى أحد الخبراء في علم النفس ماذا يقول واصفاً هذه الظاهرة: «إن و احداً من أهم التغيرات في مجتمعنا العربي في الحِقْبَةِ الأخيرة هو التحول الذي حدث في الاتجاه نحو الدور التقليدي للمرأة في المجتمع، ففي كل يوم يزداد عدد النساء اللاتي يدخلن في القوى العاملة، وفي الوقت نفسه يزداد عدد الرجال الذين لا يجدون مانعاً لديهم في المشاركة في الأعمال المنزلية. والنتيجة الَّلازمة لذلك، هو أنه في حين يزداد عدد الأمهات اللآتي يكتسبن هوية «المرأة العاملة» بدلاً من مجرد «ربة بيت»، يزداد من ناحية أخرى عدد الآباء الذين يشاركون في رعاية أطفالهم. وعلى هذا الأساس، يبدأ الأطفال يرون في آبائهم من الجنسين أفراداً لا يتمايزون كثيراً من حيث الأدوار التي يقومون بها في المجتمع... وتؤيد هذه الملاحظات نتائج الإختبارات والبحوث... فلقد قامت «أمينة الكاظم» بدراسة لاستكشاف

(١) كما تحدث الآن في بلاد المسلمين المقلِّدة للغرب في ملابس النساء وزيهن وخروج المرأة واختلاطها بالرجال، وفي مساواة المرأة بالرجل في فرص العمل ومجالاته، وفي مشاركة المرأة للرجل حتى في الرياضة وألعاب القوى... إلخ وفي المقابل تَخَنُّث الرجال بإطالة ثيابهم وشعورهم وتجمُّلهم المسرف وحلق لحاهم واتخاذ الموضات... إلخ، وكل هذا يطمس الفطرة، ويقضي على الشعور بالنوع؛ ولهذا كان الوعيد شديداً .

أثر عمل الأم... في اتجاهات المراهقين نحو عمل الأم، ووجدت أن الاتجاه الغالب لأبناء الأم العاملة سواء كانوا بنين أم بنات، كان ايجابياً نحو تفضيل خروج المرأة للعمل، في حين كان الاتجاه الغالب لأبناء ربة البيت على العكس تماماً، أي ضد عمل الأم. وتؤكد هذه النتائج أثر التغيُّر الاجتماعي في إزالة الفوارق بين الجنسين، وفي تحديد الأدوار. كذلك قام «مصطفي تركي» بدراسة الفروق بين الذكور والإناث الكويتيين في بعض سمات الشخصية، وجاءت النتائج مؤكدة تماماً لما سبق أن أوردناه من ملاحظات»[1]، وهناك دراسات أخرى تشير إلى تغييرات في القيم، وفي الأدوار الاجتماعية، وفي بعض الطبائع والصفات بسبب تجاوز المرأة لوظيفتها الطبيعية، وخروجها للعمل بأنواعه، ومبالغتها في ذلك؛ فقد تبين من بعض الأبحاث التي أجريت على الزوجات المشتغلات وغير المشتغلات «أن الزوجات المشتغلات وأزواجهن قد تغيرن بشدة نحو المساواة في السلطة في حين تبين أن ربات البيوت قد اتجهن نحو السلطة التقليدية»[2] .

وفي دراسة أخرى للمقارنة بين العاملات وغير العاملات «تبين أن أزواج المشتغلات يقومون بنسبة كبيرة وبدرجة ملحوظة من العمل المنزلي أكثر من أزواج غير المشتغلات»[3] وهناك دراسات أخرى كثيرة في هذا

---

(١) محمد عماد الدين إسماعيل: النمو في مرحلة المراهقة الصفحات ١٠٤، ١٠٦، وخشية الاطالة لم نورد جميع الأبحاث التي ذكرها المؤلف والتي تؤكد التأثير البيئي والاجتماعي في مسخ الفروق بين الجنسين المؤدي إلى ترجل النساء أو تأنُّث الرجال .

(٢) كاميليا عبد الفتاح: سيكولوجية المرأة العاملة ص٩٩ .

(٣) المرجع السابق ص١٠٠ .

الصدد تشير إلى قيام الرجال بوظيفة المرأة، من الطهي والعناية بالأطفال، وغير ذلك. وفي دراسة أخرى لمعرفة رأي مجموعتين من الطلاب حول وصفٍ لامرأةٍ باعتبارها عاملة، بالنسبة للمجموعة الأولى، ووصف لها باعتبارها ربة بيت، بالنسبة للمجموعة الثانية. ثم انتقاء السمات الشخصية لكل منهما، وقد انجلت الدراسة عن الآتي: المجموعة الأولى التي رأت المرأة على أنها «أم مشتغلة» وصوفوها بسماتٍ غير محببة أكثر من أولئك الذين رأوها «ربة بيت»، وقد جاءت السمات غير المحببة التي وصفت بها الأم المشتغلة كالآتي: حازمة، غير مشبعة، قاسية القلب، غير صبورة، عنيفة، لئيمة، أما المجموعة الثانية التى رأتها كربة بيت فقد أعطتها السمات التالية: محافظة، هادئة، حاملة أسرار، خجولة[1] .

وهكذا نجد أن المرأة تخرج إلى دائرة الرجل، والرجل يدخل إلى دائرة المرأة، ويحاول أن يأخذ كل جنس صفات الآخر خلافاً للفطرة والطبيعة.

إن الاحتفاظ بالجنس والشعور به مطلب مهمٌّ للإنسان. وخروج كل جنس عن دائرته يشقي الإنسان، ويشعره بالنقص والخواء وعدم الاستقرار، وهو يشعر الجنسين بالتضارب في الأدوار .

والفتى في مرحلة المراهقة والبلوغ تظهر عليه معالم الرجولة، وأمارات الذكورة، التي تميزه عن الفتاة، وتشعره بنوعه وجنسه. والفتاة تظهر عليها معالم النساء، وأمارات الأنوثة التي تميزها عن الفتى، وتشعرها بنوعها وجنسها. والزواج هو الذي يجعل الفتى والفتاة يمارسان الدور الحقيقي، كل حسب نوعه؛ مما يلبي هذه الحاجة الفطرية، وهى الإحساس بالنوع والتميز به .

---

(١) المرجع السابق ص١٠٣ .

أما العنصر الرابع وهو الحاجة إلى الامتلاء النفسي والاكتمال، فينبعث من شعور الرجل بنقصه دون امرأة، وشعور المرأة بنقصها دون رجل. وهذا الشعور منبعث من حقيقة فطرية، وسنة نفسية، تكمن في أصل تكوين الإنسان، وهو أن الرجل والمرأة عنصران متكاملان، وليسا متماثلين فأحدهما يكمِّل الآخر؛ ولهذا اعتبر اقتران الرجل بالرجل أو المرأة بالمرأة شذوذاً تحظره الأديان، وتأنفه الفطرة، والأذواق السليمة، ويعارضه العقل، ويستهجنه العرف. إن المرأة والرجل في الحياة الإنسانية كالسالب والموجب في الطاقة الكهربائية، والليل والنهار في الدورة اليومية، والأرض والمطر في الحياة النباتية لا يستغني أحدهما عن الآخر، فإذا كان الرجل يمثل نصف وحدةٍ فإن النصف الآخر هو المرأة لا سواها. وحنين الإنسان إلى نصفه الآخر، وشوقه إليه، وسعيه للاقتران به – أمر طبيعي فطري، وخلافه خلاف الفطرة. بل قد يكون الأمر أعمق من ذلك؛ كما يقول أحد الأدباء: «يختلف حب الرجل للمرأة عن حبها له؛ لانفصالها عنه، وكونه لها أصلاً، وكونها فرعاً منه، فحبها له كحنين الغريب إلى وطنه، وهو يحن إليها حنين الكل إلى جزئه الذي انفصل عنه، لذلك هو يحس بالنقص لفقدها، وهي تحس بالضياع لبعده كضياع الغريب في غربته»[1] .

وهكذا فإن المراهق قبل الزواج لا تستقر نفسه، ولا تهدأ روحه، ولا يشعر بالطمأنينة والامتلاء النفسي حتى ينضم إليه إلفه، ويجتمع بخله ومحبوبه، ويسكن إلى زوجِهِ؛ حيث تتم النعمة وتتحقق الحكمة،

(١) محمد سلامة جبر خصائص الأنوثة ص ٣٠، عن كتاب «العلاقة التداخلية» ليوسف محمد العبد الله ص٢٩٧ .

قال تعالى: .

﴿سبحان الذي خلقَ الأزواجَ كلَّها مما تنبتُ الأرضُ ومن أنفسِهِمْ ومما لا يعلمون﴾[1] .

وقال تعالى:

﴿والليلِ إذا يغشى۝ والنهارِ إذا تجلَّى۝ وما خلقَ الذكرَ والأنثى﴾[2] .

التبكير بالزواج:

تشهد الأدلة الشرعية التي أشرنا إلى بعضها أن التبكير بالزواج هو الإجراء الطبيعي لحياة تتفق مع الفطرة، وتتجاوب مع السنن الكونية والإنسانية، وتأجيله يعدُّ خلاف الأصل، ولا يُلجَأُ إليه إلا لحاجة، أو ضرورة، تجعله متعذراً. وقد بينت الأدلة الشرعية هذا الأمر وأكدته، من ذلك قوله ﷺ:

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج»[3] فالزواج واجب – بنص هذا الحديث – على كل قادر عليه، تائق له، والسنن الشرعية إنما هي سنن فطرية، توافق الفطرة، ولا تناقضها؛ إذا أن الإسلام إنما جاء بالحق، وبشر به، ودعا إليه، وكذلك الكون قام على الحق وبالحق، قال تعالى: .

﴿أم حَسبَ الذين اجْتَرَحوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا

---

(١) يس: ٣٦ .

(٢) الليل: ١–٣ .

(٣) الحديث سبق ذكره .

وعملوا الصالحاتِ سواءً مَحْيَاهم ومَمَاتُهم ساَء ما يحكمون. وخلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ ولتُجْزَى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ وهم لا يظلمون﴾[1] .

والسنن الشرعية جاءت لتُكيِّف الحياة الإنسانية، وتوجهها إلى ما يتفق مع سنن الحياة والكون وجاءت لتقضي على كل ما يناقض أو يعارض تلك السنن. فالشرك أو الظلم والتعدي والتشبه والتبتل «عدم الزواج»... إلخ أعمال مخالفة للفطرة. ومنها عدم التبكير بالزواج مع وجود دواعيه، وانتفاء موانعه الحقيقية؛ كالفقر المعجِزِ عن النفقة، وفقد القدرة العضوية على الزواج. أما الحجج الأُخرى فهى حجج واهية؛ مثل التأخر لعدم توفر العمل والوظيفة، والتأخر لإكمال الدراسة – على أساس أن الزواج عائق عن إكمالها – أو الحصول على المؤهل، والتأخر بحجة نقص المراهق وخفته وطيشه .

وهذه الحجج لا ترقى – من حيث أهميتها واعتبارها – إلى درجة تؤهل لتعويق حاجة أساسية، ودافع عضوي، ونفسي، لا يحتمل التأخير. فإذا كان الشاب بحاجة إلى الطعام والشراب والنوم فإنه بحاجة كذلك إلى النكاح. وإذا كان يحتاج إلى الاعتبار، والثقة والأمن، فإنه يحتاج أيضاً إلى السكن، والامتلاء النفسي. ولا يمكن أن تُلْغَى هذه الحاجة أو تؤخر إلا بموانع ملحة وأسباب ملجئة .

وكثير من الدراسات الانثروبيلوجية والنفسية – كما أشرنا – تؤكد هذه الحقيقة الشرعية الفطرية، وتبين أن حاجة الإنسان إلى الزواج حاجة

---

(١) الجاثية: ٢١-٢٢ .

تظهر مبكراً، وتكون في عنفوانها وشدتها عند المراهقة .

والاشباع الغريزي، والسكن النفسي مرهون بتحقيق ذلك. وتدل هذه الدراسات[١] على أن المجتمعات الريفية والقروية والبعيدة عن المدن لا يعيش فيها المراهق تلك الأزمات التي يعيشها مراهقوا المدن والمناطق الحضرية المكتظة؛ حيث يتحمل المراهق في القرية المسؤولية، ويتزوج مبكراً، ويحتل مركزاً معيناً. وبسبب ذلك يشعر المراهق بالاستقلالية، والاستقرار، والقدرة على تحمل المسؤوليات التي يتحملها الكبار، ولا يشعر الآباء بأي مشكلة مع أبنائهم، ولا تظهر الأزمات النفسية والاجتماعية في أوساط المراهقين؛ فقد صاروا في زمرة الكبار، يمارسون المسؤوليات، والمهمات، كغيرهم. بل صاروا أزواجاً وآباء، يتمتعون بما يتمتع به الكبار، ويحاسبون كما يحاسب الكبار .

ولأن تأخير الزواج مخالف للشرع مصادم للسنة الكونية والفطرة والإنسانية، ولا يتناسب مع الوضع الطبيعي الأصلي للمجتمع الإنساني[٢] – ترتبت عليه آثار سيئة، ومدمرة للنفس، والمجتمع، منها:

---

(١) انظر د. مصطفى فهمي: سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص٢٩١، ٢٩٤، وانظر محمد عماد الدين إسماعيل: النمو في مرحلة المراهقة ص٢٢، وانظر د. نوري الحافظ: المراهق ص٣٧، ٣٨ .

(٢) وتأخير الزواج فكرة استعمارية، وخطة يهودية، تدمر بواسطتها أخلاق الفتيان والفتيات؛ حيث تشبع الغرائز بكل طرق – إلا طريق الزواج – بالعلاقات الفنية والمهنية والدراسية والأسرية وبمستويات مختلفة من الإشباع، تبدأ بالاثارة، مروراً بالغزل والعشق واللقاءات، وانتهاءً بالزنا والسفاح، ويصير الشباب لقمة سائغة للعدو مهزوماً نفسياً ومعنوياً. وقد أسست الفكرة وأهلت، حتى بات هذا الاشباع المنحرف أمراً طبيعياً بل هو الأصل حيث يتخذ الفتى صديقة Girl Friend وتتخذ الفتاة صديقاً

١ — إهدار الطاقة العضوية بإضاعة ماء الحياة في العادة السرية والمداعبات المحظورة والزنا. وقد أمر الإسلام بحفظ الفرج وعدم التعدي فيه. قال تعالى:

﴿والذين همْ لِفروجِهمْ حافظون، إلاَّ على أزواجِهم أو ما مَلَكَتْ أيمانُهم فإنهم غيرُ ملومين. فمن ابتغى وراءَ ذلك فأولئك همْ العادون﴾[1] .

وأمر رسول الله ﷺ بالزواج من الودود الولود؛ حيث يوجه الشباب المسلم طاقته للاكثار من الذرية المسلمة؛ قال رسول الله ﷺ:

«تزوجوا الودودَ الولودَ، فإني مكاثرٌ بكم الأمَمَ»[2] .

٢ ـ إهدار الطاقة النفسية، والمعنوية؛ بإضاعة الحيوية، والفتوة والغزارةالعاطفية، والتفكُّر والخيال، والشعور الجماعي، والشجاعة النفسيَّة، والاقدام، والمبادرة، والحركية، وغيرها من الصفات النفسية، التي يتميز بها غالب المراهقين — إضاعتها بالمغامرات، والمغازلات، واستعراض السيارات، والمكاتبات، والأدبيات المنحرفة، والانحرافات الخلقية، وأكثر

= Boy Friendوعلى هذا سارت المجتمعات الغربية، والمجتمعات شبه الإسلامية في بلاد الاسلام. وصار تأخير الزواج أمراً عادياً، وعرفاً بين الناس، والتبكير به هو الشذوذ المستغرب!! ومن هنا يبدأ الانحراف، بمستوياته المختلفة، حتى ينتهي إلى هتك الأعراض وتمريغ الفضيلة باسم الحضارة والتطور .

(١) المعارج: ٢٩–٣١ .

(٢) أخرجه أبوداود من حديث معقل بن يسار: سنن أبي داود ٥٤٢/٢ وأخرجه النسائي أيضاً.

هذه الأنشطة تعبر عن متابعة وملاحقة للجنس الآخر، الفتيان للفتيات والفتيات للفتيان. وهكذا تضيع سنوات عديدة من عمر الشباب، هي جزء من عمر الأمة المحتاجة إلى طاقة شبابها. وانظر إن شئت إلى الشباب المراهقين من حولك، فترى الأعمَّ الأغلب منهم لم يتزوج بعد، والكثيرَ منهم مهدر الطاقة، يشيع فيهم القلق والاضطراب؛ بسبب أساليب الإشباع المنحرف .

٣ ـ تعريض الشباب للفتنة. ففي البيئات المعاصرة يتعرض الشباب والفتيات لشتى المغريات: المقروءة، والمسموعة، والمرئية، والمعاشة، على مستويات متعددة، مع التفنن في الإخراج بالصورة، والمشهد، والعقدة، والموسيقى، والأسلوب. ثم ذلك الاغراء الحي باللحوم الحية، في تبرج النساء، وزيِّهن، ومشيهن، وصوتهن، في الميادين المختلفة. وفي أشكال الرجال، وزيِّهم وطريقة حديثهم؛ حتى يتحول الفتى والفتاة لقمة سائغة للعدو، ويصير مفتوناً متيَّماً، أسيراً للشيطان وحبائله. والزواج المبكر هوالذي يحصن الشباب ويدرأ عنهم كثيراً من هذه الشرور والفتن .

٤ ـ العنوسة، وهي مشكلة فتاة هذا العصر، التي تُقدِّمُ الدراسة، أو الوظيفة، أو الثقافة، أو النضج – بزعمها – على الزواج؛ فتسعى للكماليات قبل الأوليات، وتؤثر السطحيات على الأساسيات، حتى إذا حصلت على ما تريد من وظيفة، أو شهادة، عادت أدراجها تفكر في الزواج، وتسعى إليه بعد أن تجاوزها القطار، وعزف عنها الرجال؛ لأنهم لا يريدون امرأة في منتصف عمرها[١]، إذ وهبت

(١) حيث تكون في سن ٢٥ إلى ٣٠. ومعلوم أن سن الحيوية، والإنجاب عندالمرأة . =

فتوتها، وحيويتها ونضارتها، وأنوثتها الشابة - للزوج الآخر - للدراسة، أو الثقافة، أو الوظيفة. وهكذا تكون عاقبة مخالفة الفطرة، ومعاكسة السنة الحياتية. أعداد هائلة من العانسات اللواتي قد فاتهن سن الزواج المرغوب والمقبول، وصار الواحدة منهن في عمر الثلاثين ترى بنتاً أخرى من جيرانها أو قرابتها في عمر العشرين قد صار لديها أولاد وزوج وأسرة، وصار لها اعتبار ومسؤولية، من خلال ممارسة دورها الطبيعي، وموقعها الفطري(٢) .

* * *

= لا يتجاوز الـ ٤٥ في الأعم والأغلب .

(٢) اكتفينا بهذه الآثار؛ لأننا لسنا بصدد استقصاء الموضوع، وإلا فإن الموضوع أوسع من ذلك؛ حيث إن تأخير الزواج له آثار كثيرة، ومن أوضحها: الآثار الجسمية، والتناسلية، والنفسية، حيث تظهر فروق كبيرة بين مبكرات الزواج والمتأخرات، وبين مبكري الزواج والمتأخرين .

ثالثاً: الحاجة إلى العمل والمسؤولية

تنبع حاجة المراهق إلى المسؤولية والعمل من التغيرات النوعية التي تطرأ على حياة المراهق في جوانبها المختلفة العقلية والوجدانية والإجتماعية والعضوية؛ حيث يتصف بالتميز المعرفي والعقلي فهو قادر على التفكير المعنوي، واستخدام الرموز، والفهم الزمني (الماضي والحاضر والمستقبل) وهو قاد ر على تصور الأشياء قبل حدوثها؛ وبسبب ذلك يكون المراهق قادراً على تحمل المسؤولية، ويكون مسؤولاً ومكلفاً من الناحية الشرعية، أي مخاطباً بالأوامر والنواهي الواردة في مصادر الشريعة الإسلامية، ومحاسباً عليها. ومن الناحية العاطفية والنفسية المرتبطة بالقدرة العقلية يبدأ المراهق بالاحساس والمعاناة والتفكير بقَدْرِهِ وقيمته عند نفسه وعند الآخرين، أي في التفكير في الصورة الحقيقية لشخصيته، كما هي في الواقع وكما يريدها أن تكون، هل هو مقبول أم غير مقبول؟ هل هو قوي أم ضعيف؟ هل هو ناجح أم فاشل؟ وكيف يعمل لتحسين هذه الصورة؟ ثم يرتبط بهذا مشاعر الاستقلال والإباء والأُنَفة والاعتداد بالنفس والكرامة، وكُرْهِ الدونية والاحتقار والضيم والإهانة والمن .

والناحية العضوية هى الأخرى تلحّ على الفتى والفتاة فطول الجسم، ووزنه وشكله، وبعض وظائفه تؤذن بتحوّله من الطفولة إلى الرجولة أو الأنوثة، وكأنها تبحث عن دور جديد. إنه يستعد للمسؤوليات والمهمات، لوظيفة ولي الأمر، والأخ الكبير، والزوج، والأب،

ورب الأسرة... إلخ، فضلاً عن التطلع للقيام بمسؤوليات جزئية ومهمات مؤقتة.

ولذلك يواجه المراهق أزمة البحث عن الذات، أو البحث عن القيمة وعن الوظيفة التي ينبغي أن يقوم بها، وعن الموقع الحقيقي له في الأسرة والمدرسة والمجتمع – وتظهر تساؤلات ومشاعر المراهقين في نهايات المتوسط وفي الثانوية في صور، منها النماذج التالية:

الفتى يتساءل ويفكر:

«في البيت أنا آكل وأشرب وأنام وألبس... مثلي مثل إخواني الصغار، أعيش بنفس الطريقة!! لكن هؤلاء الصغار ضعاف مساكين لا حول لهم ولا قوة!! همُّهم بطونهم وأجسامهم يأكلون الحلوى و«الفشار» ويشربون العصير ولا يفكرون... لكن أنا أختلف عنهم...» .

والفتاة تتساءل وتفكر:

«صحيح في البيت – أحياناً – تستشيرني أمي في بعض المسائل، والحاجات المتعلقة بالبيت والأسرة، والزيارات، لكن ولا مرة أخذت برأيي، تبيِّت الأمر هي وأبي، وينفذونه؛ حتى بدون أن أعرف السبب... أخذ الرأي كلام في كلام» .

والطالب يكْتُم في نفسه:

«هذا المدرس ديكتاتوري متسلِّط؛ حتى إذا اكتشف بعض الطلاب طريقة جديدة للحلّ يُسْكِتُه، ولا يتيح له فرصة عَرْض الرأي، عنده حسد وعدم مبالاة» .

والابن يحدث نفسه:

«أبي، عندما نكون في رحلة مع الرجال يسألني ماذا تريد؟ ما رأيك

في كذا من شؤون الرحلة؟ متى تحب أن نرجع؟ لكن في البيت ومن وراء الناس، كأني جدار من جدران البيت لا رأي ولا مشورة، ولا أستطيع أن أتصرف. حتى حاجات البيت ما يوكّلني عليها. فقط أوامر، أفعل أو لا تفعل» .

أو مثل هذا الحوار بين اثنين في سن المراهقة:

خالد: أين كنت البارحة بعد المغرب؟

فهـد: مع الوالد. ذهبنا نشتري خضاراً وفواكه للبيت، تصدَّق!! .

خالد: ماذا؟

فهـد: أبي لا يتركني أنزل من السيارة، ولا يتركني أشتري أي شيء يقول «إن البائعين يغلبونك، أنت ما تعرف لهم» وهذا الكلام يقوله من زمن بعيد من أيام الصغر .

خالد: أنت في حال جيِّدة والتعامل معك قمة. هل تصدق؟

فهـد: ماذا؟

خالد: تصدق إن الوالد يضربني بالعصا وأنا الآن عمري ١٧ سنة يقول «ادرس، ذاكر، اجتهد» كأني لا أعرف مصلحة نفسي، ودائماً يحقِّرني عند إخواني وأقاربي، ولا يعتمد عليَّ بأي شيء، حتى التفاهم ما يتفاهم معي بالكلام، كل شيء بالضرب والسب والغضب».

إنها صورة حقيقية لا متخيَّلة عرفناها من خلال احتكاكنا بالمراهقين والسؤال عنهم، والتعرُّف على طريقة التعامل معهم وأسلوب تربيتهم. وبعض هذه المواقف أُستُقِي من خلال الدراسات الميدانية التي استبانت آراء وأحاسيس جموع من المراهقين في المدارس الثانوية. وهي صور تنمي عن حاجة المراهق إلى الاعتماد عليه، وإلى تكليفه بالمسؤلية. وإذا كان

الخالق تبارك وتعالى قد كلَّفه وائتمنه على الصلاة والصيام والحج وهى أعظم العبادات، وعلى الصدق والأمانة والبر وغيرها، وهو محاسبه على ذلك، فلماذا لا يأتمنهم آباؤهم وأمهاتهم ومربوهم على بعض وجوه الصرف المالي، والأعمال التجارية، والمهمات الأسرية، والمسؤوليات الاجتماعية، والمواقع القيادية؟ ولماذا لا يدربونهم على ذلك ولو بالتدريج من الأقل إلى الأكثر، ومن الأسهل إلى الأصعب، ومن الأبسط إلى الأخطر؟

إن المراهق - بطبيعة مرحلته - لا يكف عن الاتجاه إلى التفكير في ذاته وقيمته ومسؤوليته ودوره الجديد في مرحلته المتقدمة، وإذا كف عن ذلك فهو إنما يوظِّف هذا الاتجاه في وظائف أخرى غير مجدية؛ كالاستغراق في الرياضة لعباً ومتابعةً وتشجيعاً، والفن، وجلسات السمر والفكاهة والترويح، والاستغراق في قراءة الجرائد والمجلات والكتب والقصص السوقية، والانشغال بمشاهدة المسلسلات التلفزيونية وأشرطة الفديو وتبادلها والمناقشات حولها، والاشتغال بجمع الصور الفوتوغرافية والطوابع واللَّوحات الفنية والتماثيل والصور التذكارية، ولعب الشطرنج والورقة والكيرم، والمسابقات الجنونية بالسيارات وغيرها، و«التفحيط»، والألعاب البهلوانية والمغامرات، والاشتغال بالأدب المكشوف والمرموز والغزليات... إلخ هذا إضافة إلى ما يحدث في أوساط بعض البيئات من التعود على الموسيقى والعزف والرقص والحفلات الاجتماعية والتمثيل الغنائي... إلخ[1] .

---

(١) نحن هنا لا نشير إلى الحكم الشرعي على هذه الأنشطة؛ فإن منها الجائز ومنها المحرم إما بنفسه أو لما يؤول إليه، لكننا نشير إلى الأعمال الهامشية التي يُشْغَلُ بها، أو ينشغل =

وكل هذه الأنواع من الأنشطة والأعمال وغيرها تؤذن بفساد المراهق وتهيء لانحرافه، وتقضي على فطرته وجديته، وتصبغه بالهزل والهامشية ويعتاد الاعتماد على الآخرين في الرأي واتخاذ القرارات الحياتية، وفي الرزق والأمور المعيشية.

نماذج في تربية المسؤولية والاستقلال:

لقد بينت دراسات كثيرة ظاهرة الاحساس بالمسؤولية في مرحلة المراهقة، والعوامل التي تدفع إليه وكذلك ظاهرة الاستقلال، وهي - كما أشرنا - حاجات يسندها إحساس داخلي، واستعداد نفسي، إلى جانب العوامل الاجتماعية والبيئية التي تعزز الاتجاه إلى المسؤولية وممارستها أو تثبطها. ولسنا هنا بصدد استعراض الدراسات النفسية[1] في هذا الجانب؛ لكننا نشير إلى مثال واحد ثم نمضي لاستعراض النماذج المسؤولة ذات المبادأة أو المبادرة في القرآن والسيرة. ففي دراسة قام بها «برنفنبرز» أشارت إلى وجود علاقة إيجابية، بين إحساس المراهقين بالمسؤولية من ناحية، ومدى صداقتهم لوالديهم من ناحية أخرى، أي كلما وجدت أن التعامل يأخذ منحى الصداقة (التعاون، المشورة، الحوار) بين المراهق وبين والديه، وجدت أن المراهق أكثر إحساساً بالمسؤولية، وتنعكس هذه

= بها المراهقون في مرحلة من أشد المراحل حاجة إلى المسؤولية، وهذه الأنشطة تتصف بأحد صفتين أو بهما معاً:

١ ــ الهامشية والهزلية .

٢ ــ السلبية، وهي: أن الفرد فيها يستقبل فقط، ويتأثر دون أن يؤثر أو يناقش، وذلك مثل مشاهدة التلفزيون والفديو والمجلات... إلخ .

(١) لمن يريد الاطلاع على شيء من هذه الدراسات يمكن الرجوع إلى د. إبراهيم قشقوش: سيكولوجية المراهقة ص٣١٨-٣٢٢ .

العلاقة إلى علاقة سالبة عندما يحس المراهقون بالنبذ والإهمال والجفاء من جانب والديهم. وهذا يشير إلى أهمية التفاعل مع المراهقين، ومدى علاقته ببناء شخصياتهم.

والنماذج الإسلامية الحية لممارسة الشباب للمسؤولية، والاستقلالية والمشاركة في العمل والرأي عديدة ومتنوعة في مجالاتها، وفي مستوياتها: منها ما بينه القرآن عن حياة الأنبياء وقَصَصِهم. ومنها ما تسجله السيرة عن الرسول وصحابته. ومنها ما يدونه التاريخ عن حياة الشباب بنين وبنات.

ففي القَصَصِ القرآني نجد عدداً من المواقف والنماذج نشير منها إلى قصة إبراهيم، وإلى قصة يوسف عليهما السلام، وإلى قصة أصحاب الكهف .

فسيدنا إبراهيم عليه السلام يواجه الباطل ويحاربه ويدحضه بالحوار والمواجهة والمبادرة، وكأنه يعلن مسؤوليته واستقلاليته وهو في سن فتوته وشبابه، ويحس بأنه أُمَّةٌ ولو كان وحده. وهذا كله بعون من الله وتوفيق لا يستغني عنه أحد، وانظر إلى محاورته لقومه، بعد أن جعل أصنامهم جُذَاذاً[(١)].

﴿قالوا مَنْ فعلَ هذا بآلهتِنا إنه لمنَ الظالمين. قالوا سمعنا فتًى[(٢)] يذكُرُهم يُقَال له إبراهيم. قالوا فأتوا بهِ على أَعْيُنِ الناسِ لعلهم يشهدون. قالوا ءأنت فعلتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرُهم هذا فسئلُوهم إنْ كانوا يَنطِقُون﴾[(٣)] .

---

(١) أي كسراً وقطعاً .

(٢) الفتى: هو الشاب الحدث. وهو وإن كان شاباً حديث السن إلا أن حاله ومواقفه تنمي عن الرشد والاكتمال، وفي ذلك عبرة للآباء في تربية أبنائهم، وللشباب في التأسي والاقتداء .

(٣) الأنبياء: ٦٠-٦٤ .

وفي قصة نبي الله يوسف، يبين اللهُ حاله ومواقفه منذ نعومة أظفاره وفي سن الصبا والشباب والفتوة. وتجد في قصته المبادأة، والحوار مع أبيه عندما رأى الرؤيا؛ قال تعالى:

﴿إذ قال يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ إنِّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين. قال يا بنيَّ لا تَقْصُصْ رؤياكَ على أخوتِكَ فيكيدوا لك كيدا إن الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبين﴾[1] .

وتجد الصبر، والجرأة، والاستقلالية، والثبات على المبدأ في مراحل عمره المختلفة، وفي أحلك الظروف والأحوال، في حال العبودية والرق، وفي حال الفتنة والإغراء للوقوع في الزنا، وفي حال الفتنة بالسجن والعذاب، وفي حال الفتنة بالملك والحكم .

وفي قصة أصحاب الكهف الذين أَعْمَلُوا عقولهم وقدراتهم المعرفية وتفكروا، وتدبروا، وكانوا مبادرين لاتخاذ القرارات الجذرية في حياتهم، ولم يكونوا تابعين معتمدين على الغير، أو مقلدين للآباء والأقوام دون وعي. قال تعالى:

﴿نحنُ نَقُصُّ عليكَ نبأَهم بالحقِّ إنهم فِتْيَةٌ[2] آمنوا بربِّهم وزدناهم هدىً. وربطْنَا على قلوبِهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمْوات والأرضِ لن ندعُوَ من دونِهِ إلٰهاً لقدْ قُلْنا إذاً شَطَطًا. هؤلاءِ قومُنا اتخذوا مِنْ دُونِهِ آلهةً لولا يأتونَ عليهِمْ بسلطانٍ بينٍ فمنْ أظلَمُ ممن افترى على اللهِ كذباً. وإذْ اعتزلتموهُمْ وما يعبدونَ إلا اللهَ فأووا إلى الكهفِ ينشُرْ

(١) يوسف: ٤-٥ .

(٢) الفتية: جمع فتى وهو الشاب الحدث كما سبق ذكره .

لكم ربُكم مِنْ رحمتِه ويهيىء لكم من أمرِكم مِرْفَقاً﴾[1] .

وفي القرآن قَصَصٌ كثير عن مواقف المؤمنين والمؤمنات ونشأتهم وقيامهم بمسؤولياتهم، ومبادراتهم، وثباتهم؛ من ذلك قصة موسى عليه السلام، ونشأته، ومواقفه. وقصة مريم نشأتها، وطهارتها، وثباتها. وقصة إسماعيل، ويحيى عليهما السلام، وغير ذلك. وبعض هذه القَصَص لا يطيل عندها القرآن وإنما يشير إلى المواقف المهمة والمواطن ذات العبرة. ومنها مواقف الثبات على الحق، والشعور بالمسؤولية، والاستقلالية، والمواقف المحتاجة إلى اتخاذ القرارات .

وأما الرسول ﷺ فقد نشأ وترعرع يتيماً، وكان في كفالة جده عبد المطلب ثم في كفالة عمه أبي طالب ونشأ على الإباء وحب العمل والاعتماد على النفس وممارسة المسؤولية[2] .

وكان يصر على أن يشارك عمَّه هموم العيش؛ إذ كان أبو طالب كثير الأولاد قليل المال، وعندما قرر أن يسافر إلى الشام ابتغاء الاتجار والربح قرر أن يكون معه، وكان عمره إذ ذاك نحو ثلاثَ عشرةَ سنة .

وقد تعود رسول الله ﷺ على حياة الكدح والعمل، ولم يكن من عادته القعود، والاخلاد للدعة والراحة، وقد كان الأنبياء قبله يأكلون من عمل أيديهم، وقد اشتغل رسول الله ﷺ في رعي الغنم في فتوته وشبابه، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما بعث اللهُ نبياً إلا رعى الغنم. فقال له أصحابه: وأنت؟ فقال:

---

(١) الكهف: ١٣ - ١٦ .

(٢) انظر محمد الغزالي: فقة السيرة ص٦٨-٧٠ .

نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1] .

واشتغل رسول الله ﷺ في التجارة، ورحل إلى الشام عاملاً في مال خديجة – رضى الله عنها – قبل زواجه منها، وكان معروفاً بقدرته وحنكته، وبصدقه وأمانته، وقد ربح في تجارته الأخيرة أكثر من سابقاتها مع عمه أبي طالب .

إن هذه الحياة الكادحة المتفاعلة لتدل على المنشأ الحسن، والأسلوب الأمثل في تربية النفس، وتعويدها على الجد والكد والعمل، وتمرينها على المواجهة والمسؤولية والمواقف المتنوعة. فالرعي، والسفر، والتجارة مجالات عملية خصبة لممارسة وجوه الحياة المختلفة السهل منها والصعب، اللين والقاسي، الربح والخسارة، الشبع والجوع، العسر واليسر. ولممارسة الوظائف المتعددة، كنحو راع، وأجير، وقائد حملة، ووكيل على مال، ومفاوض تجاري. إنه نموذج فذ في النشأة السوّية في قوتها وشجاعتها، وفي نقائها وفطريتها .

والنماذج في سيرة صحابة رسول الله ﷺ كثيرة، إذ أن الفتيان والفتيات اللاتي تَرَبَّيْنَ في الإسلام وعلى توجيهات الرسول ﷺ كُثُرٌ لا يمكن الإحاطة بهم، وبِسِيَرِهِم في هذا المقام، ولكن نشير إلى مثالين:

فهذا علي بن أبي طالب – رضى الله عنه – كان أول من آمن برسول الله ﷺ – من الصبيان، وكان عمره يناهز العاشرة، وتحمل في ذلك مسؤولية نفسه، رغم ما سيجده من الصد، والانكار عليه، وكان يتخفى – بصلاته مع رسول الله ﷺ في شعاب مكة – عن أبيه، وعن أعمامه،

(١) أخرجه البخاري .

وسائر قومه. وكان لعلي مسؤوليات محددة يكلفه بها رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالدعوة وبالداخلين الجدد في الإسلام وكان رسول الله ﷺ يستشيره ويأخذ رأيه في المواقف والمناسبات المشهودة، ولم يتخلف مع رسول الله ﷺ بمكة حين الهجرة إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب؛ حيث مكث بأمر رسول الله ﷺ وتكليفه له - ثلاثة أيام؛ ليؤديَ عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ. وقد تعود على الشجاعة والجرأة، نهجه الإقدام والمبادرة، وكان من أول المبارزين في غزوة بدر قبل أن تبدأ المعركة عندما تقابل الصفان، بارز الوليدَ بنَ عتبة بن ربيعة فقتله، وكر هو وعمه حمزة رضى الله عنهما على عتبة بن ربيعة فقتلاه .

ولاشك أن لنشأة علي وما تربى عليه أعظم الأثر فيما اتسم به من القوة والشجاعة وتحمل المسؤولية واتخاذ القرارات الحاسمة .

وهذا أسامة بن زيد شاب يافع يشترك في غزوة الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان رسول الله ﷺ أيضاً يستشيره ويطلب رأيه في المناسبات المختلفة، وقد أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ على جيش إلى الشام وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والدوارم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وخرجوا كلهم معه بما فيهم كبار المهاجرين والأنصار، وعندما تأخر في الخروج بسبب مرض رسول الله ﷺ استبطأ الرسول الناس في خروجه ونهرهم، لما ذكروا من حداثة سن أسامة، ولمقالتهم في إمارته على كبار الصحابة(١)، وقد أنفذ أبو بكر جيش أسامة بعد انتقال

---

(١) عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام: ص٣٢٧، ٣٣٧ .

رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. ولقد كان رسول الله ﷺ بعيد النظر، يتولى التربية بحنكة وحكمة والهام؛ فهو ﷺ يعرف أصحابه، فقد تربَّوْا في مدرسته، وكان يرعى بعضهم - وهم صبية صغاراً - بتوجيهاته وتدريباته وتكليفاته حتى يستطيعوا أن يؤدوا المهمات الكباروهم في فتوتهم وحداثتهم، ومن ذا الذي يقدح في قدرات علي وأسامة القيادية وحُنْكَتِهم(١) وطول نَفَسِهِم واستعدادهم لتحمل المسؤولية واتخاذ القرارات في المواقف الحالكة؟ .

وشباب الصحابة المجاهدون كثيرون، يمتشقون الحُسام مبكرين، ويصاولون الحمام يافعين، يعرفون الحياة من خلال مواقف الشجاعة والاقدام، فهم مع سن التكليف يبدأون بخوض الحياة الجهادية، فكيف بالحياة المعيشية؛ واقرأ - إن شئت - هذا المقطع الصغير عن غزوة أُحد ترى عجباً:

«وأجاز رسول الله ﷺ يومئذٍ سَمُرَةَ بنَ جُنْدُب، ورافعَ بن خُدَيْج أخا بني حارثة، وهما ابنا خمسَ عشرةَ سنة، وكان قد ردهما، فقيل له: يا رسول الله إن رافعاً رام، فأجازه، فلما أجاز رافعاً قيل له: يا رسول الله، فإن سَمُرَةَ يصرعُ رافعاً. فأجازه. ورد رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت والبراء بن عازب، وعمرو بن حزم، وأسيد بن ظهير، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة»(٢) .

* * *

(١) الحُنْكَةُ: التجربة، والبصر بالأمور. انظر لسان العرب لابن منظور - مادة: حَنَكَ .

(٢) عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام: ص١٥٩ .

التهيئة لتحمل المسؤولية

كما يحتاج الوليد إلى الفطام عن ثدي أمه، والاستقلال في تناول حاجاته العضوية، من طعام وشراب - فإن المراهق بحاجة إلى الفطام عن الاعتماد على الغير إلى الاعتماد على النفس، ومن الاتكالية النفسية والعاطفية على الوالدين وغيرهم إلى الاستقلال في مواجهة المشكلات واتخاذ القرارات. وكما أن الفطام العضوي يحتاج إلى معاناة ومشقة وصبر، ويحتاج إلى التدريب، والطرق فيه تختلف، فمنها المؤذي المعسر ذو الانعكاسات السيئة على الطفل، ومنها الناجح الميسر المحقق للأهداف دون آثار سيئة على الطفل. كذلك الفطام النفسي والعاطفي في المراهقة. وعلى الوالدين والمربين أن يعملوا على تنمية الاتجاه لتحمل المسؤولية لدى أبنائهم ومربوبيهم؛ لكي يتمكن هؤلاء من الخروج إلى ساحات المجتمع لممارسة دورهم ومسؤوليتهم في الحياة العامة. بطريقة سوية. ويمكن أن نقترح بعض الاجراءات التي تساعد المربي على تهيئة المراهق لتحمل المسؤولية من خلال عدة مجالات، يوضحها الجدول (٢) .

مجالات التهيئة

أسلوب المعاملة	المشاركة الأسرية	المشاركة الاجتماعية
١ـ الحوار والمناقشة.	١ـ القيام ببعض المسؤوليات	١ـ الدعوة إلى الله.
٢ـ المشاورة في المناسبات.	٢ـ المصروفات والاستقلالية المالية	٢ـ الأعمال التطوعية.
٣ـ المشاركة في اتخاذ القرارات	٣ـ التخطيط للمستقبل والتنفيذ	٣ـ العمل المؤقت والمستمر.

جـدول (٢) **يبيّن مجالات وأساليب التهيئة لتحمُّل المسؤولية**

هذه المجالات تشمل:

١ ـ **أسلوب المعاملة:** حيث يتأثر المراهق بنوع المعاملة التي يلقاها من والديه ومربيه، فهي إما أن تعوده على الأخذ والعطاء، والمبادرة والمشاركة، وإما أن تجعله سلبياً منزوياً لا رأي له، يعتمد على الكبار في كل شيء. ولأسلوب المعاملة الإيجابي صور عديدة منها:

أ ـ استخدام الحوار والمناقشة مع الشباب عند طرح الآراء في المجالس، وعند تقويم الأحداث والأفكار والأشخاص، وعند إصدار الأوامر والنواهي على وجه التراخي... إلخ .

ب ـ استخدام الشورى في المناسبات المتعلقة بالأسرة والعائلة والمدرسة... في المجالات المختلفة كمناسبات الزواج، والرحلات، والتنقلات، ونوع الدراسة والسيارة والبيت... وكل ما يعرض للأب أو المربي مما يصلح أن يشاور فيه الشباب لتعويدهم وتدريبهم على القيام بدورهم وتحمل مسؤولياتهم.

جـ ـ التعويد على اتخاذ القرارات، فقد يَعْمِدُ الأب أو المربي إلى وضع الابن في مواضع التنفيذ، وفي المواقف الحرجة، التي تحتاج إلى المبادأة، وإلى اتخاذ القرارات، وتحمل ما يترتب عليها، وذلك تعويداً له على مواجهة الحياة والتفاعل معها.

٢ ـ **المشاركة الأسرية:** إذ أن الأسرة كالمجتمع الصغير؛ لها أعضاء، وأنظمة، وقيادة، وميزانية، وبرنامج، وعادات، ويمكن من خلالها ممارسة كثير من الأدوار والمسؤوليات. والأسرة هي المحضن الأول للفرد، الذي فيه يترعرع وينشأ، ووفق كيفية النشأة والتربية في الأسرة تكون

استقلاليته أو تبعيته، وإقدامه أو احجامه .

وللمشاركة الأسرية صور متعددة منها:

أ ـ التعويد على القيام ببعض المسؤوليات؛ كالاشراف على الأسرة والقيام بشؤونها أحياناً، وخصوصاً في غياب ولي الأمر، والاشراف على بعض الرحلات الأسرية، والقيام بها استقلالاً أحياناً، والسعي في الاجراءات المدرسية، والإدارية، والوظيفية التي تتعلق بالأسرة، والسعي في طلب الخدمات العامة للبيت، وصيانتها. إلى غير ذلك من الأعمال الأساسية والجانبية .

ب ـ التعويد على الصرف والاستقلالية المالية، وذلك بمنحه مصروفاً مالياً كل شهر أو كل أسبوع، ويقوم بالصرف على البيت، وعلى نفسه، مع مساعدته باعطاء المعلومات والخبرة اللازمة، وقد لا يتولى الصرف بشكل كلي، وإنما يقوم بالصرف على جوانب معينة في باديء الأمر، ثم بعد تعوده ونجاحه يسند إليه القيام بالإشراف الكلي على هذا الجانب. وقد يستعمل الآباء والمربون صوراً أخرى تكون أنجح وأيسر، والمهم هو العناية بهذا الجانب، والاعتماد على النفس.

جـ ـ التعويد على التخطيط للمستقبل وبدء التنفيذ؛ بإشعار المراهق أنه يستقبل الحياة، ولابد أن يتحمل تبعاتها، وأن يخطط لها؛ فيكون إيجابياً في اختيار توجهه الدراسي، والوظيفي، والزواجي، والدور الاجتماعي. وأن يربط بأهمية التخطيط الواقعي، والعملي لمستقبله؛ حيث لا تتحقق المرادات اتفاقاً، دون سعي وعمل، ودون تخطيط وتفكير .

٣ ـ المشاركة الإجتماعية: وهى مجال رحب وواسع لتدريب المراهق.

وعن طريق المجتمع يتعود المراهق على مسؤوليات قد لا يجد لها مثيلاً في الأسرة أو الرفقة. ومن طبيعة المجتمع أنه يحاسب الفرد على مسؤولياته محاسبة اعتبارية (أي على اعتبار أنه قادر على تحمل المسؤولية) لا مجال فيها للمحاباة، أو الحنان، أو الشفقة التي يجدها من الأبوين في الأسرة، كما أن المراهق لا يتوقع أن يحاسبه المجتمع كما يحاسبه والداه. وهناك مجالات شتى للمشاركة في المجتمع ومسؤولياته، منها:

أ ـ ممارسة الدعوة إلى الله، عن طريق برامج التوعية والثقافة الإسلامية في المدارس، وعن طريق نشاط المساجد في تحفيظ القرآن، والندوات الثقافية، والحلق العلمية والمكتبات، وعن طريق الرحلات الدعوية، والخلوية، ورحلات الحج والعمرة، وغير ذلك من الأنشطة. وفي هذه الأنشطة يمكن أن يتعود المراهق على الإمارة، والقيادة، والمسؤوليات الجزئية والكلية، ويختبر نفسه في المواقف المختلفة والمناسبات الاجتماعية والثقافية، التي تحتاج إلى المبادرة، والمشاركة في اتخاذ القرارات. ومجال الدعوة مجال أوسع وأعمق مما ذكرنا؛ فهو يتسع ليشمل النشاط لدخول الناس في الإسلام، والتخطيط لذلك، والنشاط لتقويم السلوك المعوجّ للأفراد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويشمل أيضاً الجهاد في سبيل الله باللسان والقلم والمال والوقت والنفس. وإنما أشرنا – فقط – إلى مداخله وإلى الصور المناسبة والممكنة للشباب .

ب ـ القيام بالأعمال التطوعية، وهي مرتبطة بسابقاتها، إذ أن الأعمال التطوعية تدخل في الأعمل الدعوية، لكنها تأخذ طابع المساعدات الإجتماعية؛ كمساعدة الفقراء والمحتاجين وتفقّدِ أحوالهم، والمشاركة في المواسم العبادية مثل رمضان والأعياد بتوزيع الصدقات والهدايا. كذلك زيادة المرضى ومساعدتهم. ومن ذلك المساعدات الدراسية في حلِّ الواجبات المدرسية، ومساعدة زملائه عند الحاجة، هذا إضافة إلى المشاركة في الجمعيات التي تقوم بمثل هذه الأعمال وما يشابهها. وهذه الأعمال تعد من أحب الأعمال إلى الشباب وأكثرها إعجاباً وجذباً لهم في هذه المرحلة.

ج ـ العمل المؤقت والمستمر، وذلك بأن يعمل الآباء والمربون على ربط أبنائهم بأعمال تجارية، أو مِهْنية، أو وظيفية، منذ وقت مبكر، ويمكن البدء أولاً بأعمال موسمية مؤقتة في العطل والأجازات، وبأعمال لا تتطلب الدوام الكامل في الأيام العادية. ويكون لهذه الأعمال عائد مادي، وانجاز عملي يحس منه المراهق أنه قادر، ومستقل، وصاحب مسؤولية .

* * *

الحاجات الثقافية

أولاً: الحاجة إلى الاستطلاع

إن حب الإنسان للاكتشاف والاستطلاع يمثل دافعاً مستقلاً. ولولا وجود هذا الدافع لما وسَّع الإنسان من إطار علومه ومعارفه الشيء الكثير، الذي يتعدى الضروريات إلى الكماليات والتحسينيات. ويمثل دافع الاستطلاع الجذور الأولى للرغبة في المعرفة والاستزادة منها. وبالاستطلاع، والسؤال، والاكتشاف يتعرف على الموضوعات النفسية والاجتماعية والبيئية، فيصل إلى الحقائق وإجابات المسائل. ومن خلال ذلك يلبي حاجته الاستطلاعية، وقد عالج القرآن موضوعات عديدة بأسلوب السؤال والجواب، ودعا إلى التعرف على الكون والحياة والإنسان؛ بالنظرة المتفحِّصة والاكتشاف والمقارنات؛ قال تعالى:

﴿ويسألونك عن الأهِلَّةِ قل هِيَ مواقيتُ للناسِ والحجِّ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورهِا ولكنَّ البرَّ من اتقَى واتوا البيوتَ من أبوابها واتقوا اللهَ لعلكم تفلحون﴾[1] .

وقال تعالى:

﴿ويسألونك عن ذي القرنينِ* قل سأتلوا عليكم منه ذكراً* إنَّا

---

(١) البقرة: ١٨٩ .

مكنَّا له في الأرضِ وآتيناهُ من كُلّ شيءٍ سبباً﴾[1] .

وقــال تعالى:

﴿ويسألونك عن الجبال فقلْ يَنسِفُهَا ربِّي نَسْفَا فيذَرُها قاعاً صَفْصَفاً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً﴾[2] .

وقــال تعالى:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقَهم كيفَ بنَيْنَاها وزيَّنَّاها ومالَهَا من فروج والأرضَ مددناها وألقْينا فيها رَوَاسِيَ وأنبتْنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾[3] .

وقــال تعالى:

﴿فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامِه﴾[4] .

وقــال تعالى:

﴿فلينظرِ الإنسانُ ممَّ خُلِقَ﴾[5] .

وقــال تعالى:

﴿أولمْ ينظروا في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ وما خلقَ اللهُ من شيءٍ﴾[6] .

---

(١) الكهف: ٨٣؛ ٨٤ .

(٢) طـه : ١٠٥-١٠٧ .

(٣) ق : ٦، ٧ .

(٤) عبس : ٢٤ .

(٥) الطارق: ٥ .

(٦) الأعراف: ١٨٥ .

ولأن هذه الحاجة الاستطلاعية قد تتعدى حدودها الطبيعية، وتتجاوز إلى دائرة نفسية وتربوية غير مجدية، كما هو حال الدوافع والحاجات الأخرى عندما تتجاوز الحد - وجدنا أن أسئلة أخرى تطرح بدافع الاستطلاع لا يجيب عليها الشارع المربي، ويصرف الإنسان عنها إلى المفيد المجدي .

قال تعالى:

﴿يسألونك عن الساعةِ أيّانَ مُرْسَاها فِيمَ أنت مِن ذِكراها ـ إلى ربك منتهاها - إنما أنت منذِرُ مَنْ يخشاها﴾[1] .

وقال تعالى:

﴿ويسألونك عن الروحِ قل الروحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وما أوتِيتُمْ من العلمِ إلا قليلاً﴾[2] .

والسلوك الاكتشافي والاستطلاعي يبدأ عند الإنسان من الطفولة الباكرة؛ فهو يجرِّب الأشياء، ويبحث عنها، ويتعرف على الجديد، وينجذب للأشياء الغريبة. وتتزايد هذه النزعة للاستطلاع بشكل سريع وخصوصاً في السنوات الرابعة والخامسة من العمر، ويتمثل هذا في الأسئلة الكثيرة جداً والمتنوعة عن الأجرام والأشياء والأشخاص والأحداث بمن؟ ولماذا؟ وكيف؟... إلخ .

وقد دلت أبحاث عديدة على وجود ونمو هذه الحاجة عند الإنسان

---

(١) النازعات: ٤٢، ٤٥ .

(٢) الإســراء: ٨٥ .

منذ الطفولة[1]. ويذهب بعض علماء النفس بعيداً مثل الكند (Elkind)[2] فيرى أن لدى الإنسان دافعية تدعى (المثير التفتيشي) وهى موجودة أصلاً ومغروسة في بنيان الطفل الصغير تجعله ينشط ويبحث عن الأشياء ويستكشفها .

وتعد ظاهرة الاستطلاع نوعاً من الدافعية الذاتية والحاجة النفسية، ترمي إلى تأمين معلومات حول موضوع أو فكرة أو حادث، حيث يرغب الفرد في الشعور بفاعليته، ومشاركته، وقدرتـه على الإكتشاف[3]. وهذا ما نجد مصداقه في سلوك الأطفال والمراهقين، عندما يستطلعون، أو يسألون، أو يغامرون. فهي حاجة ذاتية، تنبع من داخل النفس، تتطلب الاشباع، والتوجيه والاستثمار .

ومما يعزز دافع الاستطلاع في مرحلة المراهقة تلك التغيرات التي تحدث لجوانب المراهق المختلفة؛ وخصوصاً في النواحي المعرفية والعقلية، فهو يمتلك قدرات جديدة ومتميزة، يستطيع بها فهم الأشياء وتفحصها. ويتطلع المراهق إلى معرفة أوسع وأعمق عن الأشياء التي تواجهه، والأسئلة التي تقلقه. كما أن النمو العاطفي والانفعالي يجر المراهق إلى تجريب نفسه، واكتشاف ميوله؛ بدافع الاستطلاع. وقد يدعوه ذلك إلى المغامرة، والتعدِّي، ومجاوزة الحدود؛ لإشباع فضول، أو اكتشاف مجهول؛ كما هو الحال لبعض من يقع في التدخين، أو تعاطي المخدرات من المراهقين –

---

(١) انظر محي الدين توق وعبد الرحمن عدس: أساسيات علم النفس التربوي ص١٥٢ .

(٢) انظر المرجع السابق ص٢٩٥، ٢٩٦ .

(٣) انظر عبد المجيد نشواتي: علم النفس التربوي ص٢١٠ .

وهذا الاستطلاع هو بعض ما يدعو المراهقين إلى كثرة الأسئلة، وكثرة القراءة، وإلى التجسس أحياناً، وإلى المجازفة بالنفس، أو بغيرها .

ويتجه بعض المراهقين إلى اقتناء الكتب والقصص والصحف والمجلات وقراءتها، والعكوف عليها، والاستمتاع بما تحويه من أحداث، وتحليلات، وقصص، ونماذج بطولية، وأفكار تغييرية .

وينجذب المراهق إلى هذه الأشياء بسبب ما تلبيه هذه الأنشطة من حاجة الاستطلاع، والمغامرة والاكتشاف. وقد يلجأ المراهق إلى القراءة - والقراءة الواسعة - في مجالات متعددة؛ بسبب ما يجده من عدم التقبل له في مجال ممارسة الأعمال والمسؤوليات؛ حيث لا يجد ما يلبي رغبته في الاستطلاع من زاوية عملية واقعية، ولا ما يلبي رغبته في العمل والمسؤولية .

نماذج لاستطلاعات المراهقين:

يمكن أن نشير إلى بعض الأفعال، والأنشطة الاستطلاعية، التي يتجه إليها بعض المراهقين، والتي تأخذ حيزاً كبيراً من وقتهم، وجزءاً بالغاً من اهتمامهم، وقد تغلب على حياتهم، وتستأثر بميولهم ورغباتهم، وقد ترسم شخصياتهم؛ من تلك الأنشطة :

١ ـ **نشاط القراءة عن المكتشفات والاختراعات**، وعن الغرائب والمجاهيل، والقراءة في كتب المذكّرات، والرحلات الاستكشافية حول الأرض، وبين القارات، وفي البحار، وإلى قمم الجبال، وفي المناطق الخطرة، وغير المأهولة. وهذه المذكرات، والأنشطة الرحلية تستخدم الجذب والشد؛ بوسائلها وعقدها وغرائبها ومكتشفاتها،

فقد تكون على الجمال، أو الخيول، أو على دراجة نارية، أو سيارة قديمة، أو سفينة شراعية، أو بالونة هوائية، وقد تتعرض لغابات ووحوش، أو عواصف وأمواج، أو مهالك ومعارك، أو تيه وضياع... إلخ .

وينشد المراهقون أيما إنشداد لهذا النوع من النشاط، لما فيه من الاستطلاع، والتعرف على الجديد والغريب، ولما فيه من الاكتشاف، وحل المشكلات، والخروج من المآزق. ويغرق بعض المراهقين في هذا النشاط، ويهلكون أوقاتهم فيه، وينصرفون عن الأعمال الإيجابية، والأنشطة الواقعية. وقد يفقدون التوازن في النظرة، وفي الشخصية بسبب ذلك .

٢ ـ نشاط المشاهدة والقراءة في قصص المغامرات والبطولات الوهمية وروايات العنف والعصابات. وهذا أمر شائع في المجتمع المعاصر، وخصوصاً في أوساط المراهقين والمراهقات؛ فقد امتلأت المكتبات بكتب المغامرات وقصص العصابات، وبالروايات التي تقوم على الصراع والتنافس، وإثارة المشكلات والمواجهات، ثم اكتشاف الحلول، وحدوث الانتصار والغلبة. وينشد المراهقون إلى هذا النوع من النشاط أيضاً؛ لما فيه من الاثارة والغرابة والجدّة، ولما يشتمل عليه من حل للمشكلة عبر الصراع والمجازفة. ويشبع المراهقون بهذا نهمهم الاستطلاعي، وميولهم التخيلية، ورغبتهم في المغامرة والاكتشاف. لهذا يستغلُّ الكتاب، والقصاص، والناشرون هذه الحاجة البارزة في الناس – وخصوصاً عند المراهقين – لتسويق أكبر عدد من المنشورات في هذا المجال .

٣ ـ **نشاط الرحلات** حيث يميل بعض المراهقين إلى ممارسة نشاط الرحلات والقيام بأسفار قصيرة وطويلة. ومما يشدهم إلى ذلك اشتمال هذه الرحلات على أنشطة استطلاعية؛ كزيارة منشآت جديدة، أو غريبة، وزيارة المتاحف والآثار القديمة، وزيارة الأماكن الطبيعية الملفتة والعجيبة؛ كالجبال المرتفعة، والكهوف والمغارات، والأودية السحيقة، والشلالات المائية. والرحلة بحد ذاتها تعتبر نشاطاً استطلاعياً عندما تقصد مكاناً ما لأول مرة .

وقد فطنت لذلك مؤسسات الأنشطة الشبابية، فصارت تنظم رحلات للمراهقين والشباب إلى مواطن الطبيعة، والمواقع التاريخية، والمشاريع الجديدة والضخمة، لكنّ كثيراً من هذه الرحلات لا تستثمر الاستثمار المناسب، ولا توجه توجيهاً شاملاً ومتوازناً لخدمة الشباب ثقافياً وخلقياً ونفسياً. بل إن بعض هذه الرحلات – إضافة إلى الرحلات التي ينظمها المراهقون أنفسهم تكون مجالاً لانطلاقة المراهق المتطرفة، وسبباً لممارسة التفلت والحرية المذمومة؛ حيث يقوم باشباع حاجاته دون ضوابط وحدود، ويغرق في تتبع الشهوات واتلاف الأوقات، وما لم تُضْبَطْ الرحلات الاستطلاعية والترفيهية ببرنامج شامل ومتوازن يراعي جميع جوانب الشخصية لدى المراهق، ووفق المتطلبات الفكرية والخلقية للمجتمع فإن انعكاساتها النفسية والتربوية تكون سيئة، وبالغة التأثير على سلوك المراهق وطبيعة شخصيته،ولو أن هذه الرحلات – في أصلها – تلبي أحد حاجاته وهى الاستطلاع والاكتشاف .

٤ ـ **نشاط الاكتشاف والتجريب**، بحث يعمِد بعض المراهقين بدافع

الاستطلاع والتعرف - إلى تجريب أنفسهم، وتجريب الأشياء من حولهم، لاكتشاف الآثار والنتائج. ومن ثم الحصول على المتعة، أو التسلية، أو لفت الانتباه. ومن ذلك تجريب شرب السجائر، وتجريب استخدام السيارات بطرق قيادية معينة؛ لاحداث الجديد والملفت، والتجريب في هيئاتهم، وملابسهم، وأشكال شعورهم؛ لمعرفة الرجع الذي تحدثه عند الجنس الآخر الآخر أو عند الناس عموماً. وكذلك تجريب المخدرات وبعض العقاقير. وهذا مما ابتلي به مراهقوا العصر الحاضر، حيث يقع كثير من المراهقين فريسة للمخدرات؛ بسبب حب الاستطلاع، والتجريب ابتداء، ثم لا يلبث أن يصير من أصحابها .

* * *

التعامل مع الحاجة إلى الاستطلاع

إن اهتمام المربي بمجال الاستطلاع عموماً، والتعامل مع المراهق فيما يتعلق باستطلاعاته، وفضوله، ورغبته للاكتشاف والمعرفة - أمر ضروري وهام. ولمساعدة المربي في هذا المجال الحيوي المؤثر يمكن أن نقترح عليه التخطيط والعمل في ثلاث دوائر متداخلة ومتساعدة. على أن ينظر إلى هذه الدوائر مجتمعة لا منفصلة؛ فلا يأخذ المربي واحدة دون الأخرى؛ إذ أن التربية في هذه الحالة ستكون ناقصة وغير مجدية. انظر شكل (٣) وهذه الدوائر هي:

١ ـ حماية المراهق من التعرض للاستهواء بسبب الاستطلاع .
٢ ـ تنمية قدرة المراهق على ضبط الاستطلاع .
٣ ـ تلبية حاجة المراهق للاستطلاع بالطرق الطبيعية السليمة .

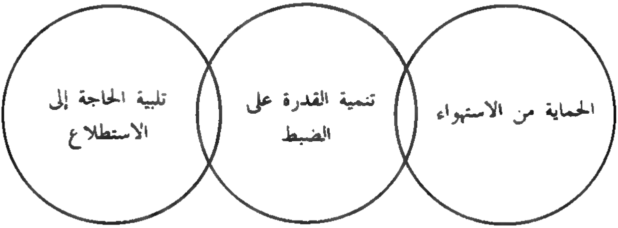

شكل (٣)

وبهذا يتم التعامل مع حاجة الاستطلاع تعاملاً متوازناً، بين منعه في مجالات، والإذن به في مجالات أخرى، وبين ضبطه داخلياً بتنمية القدرة على الانضباط الذاتي لدى المراهق، وضبطه خارجياً بمنع أو حجب

بعض الأشياء من وسائل وكتب وأنشطة وأماكن وغير ذلك، وينبغي أن يشعر المراهق بطريقة عفوية أن أنشطته الاستطلاعية ملباة من خلال تلك الدوائر الثلاث. وسنتناول هذه المجالات الثلاثة فيما يأتي:

الحماية من الاستهواء والإغواء:

يتميز المراهق بالقابلية للاستهواء والإغواء بسبب من ضعفه النفسي وقوة غرائزه وقلة خبرته. فإذا علمنا أنه محبٌّ للاستطلاع والاكتشاف عرفنا بذلك الطريق الأول، والممهد الطبيعي لحدوث الاستهواء، ومن ثم اكتساب السلوكيات والممارسات المختلفة، ومنها ما يقع فيه المراهقون من انحرافات وشذوذات في الفكر وفي الخلق وفي السلوك. ويمكن للمربي أن يخطط لإغلاق أبواب الاستطلاع المؤدية إلى ذلك، وأن يحجب ما يستطيع حجبه من جواذب ومغريات، ومواطن وشهوات تلفت نظر المراهق وتسترعي انتباهه وفضوله، وتلح عليه ليمارسها أو يجربها أو يقتنيها. ومن هذه المواطن والمغريات على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ الفكر المنحرف، والأدب المكشوف المحاط بالجاذبية، والملمَّع في شكله وأسلوبه وعرضه، من كتب وكتيبات وقصص بوليسية وغرامية وصراعية، ومن مجلاّت مصورة وملونة ومخرجة بفنون الاخراج الملفت والسافر في شكله ومادته .

٢ ـ المادة الاعلامية المنمقة والجذابة التي تدعو إلى الرذيلة، والدعاية الكاذبة المهولة، التي تخدع المراهق، ومن ذلك المسلسلات والتمثيليات والأفلام التي تجذب المراهقين،وتروى استطلاعهم بطريقة منحرفة، وتصيبهم بالانبهار الاعلامي، والخديعة، وتؤدي بهم إلى الانحراف السلوكي، والضياع الخلقي، والوقوع في الشذوذ

بصوره المختلفة، سواء عن طريق الفديو أو التلفزيون أو السينما .

٣ – مواطن الرفقة السيئة، والتجمعات المشبوهة، التي قد تدعو المراهق للوقوع في المخدرات والمشروبات الكحولية والتدخين وغيرها، والتي تعرض هذه الأشياء، وتجتذب المراهق إليها للتجريب في البداية، ثم لا يلبث أن يُسْلَكَ في فئة العملاء المأسورين لها .

وهكذا فإن المراهق بحاجة إلى من يحميه من الاستهواء والانجذاب، وخصوصاً في البيئات المكتظة بأنواع الثقافات والأفكار، وشتى القيم والأخلاق، وفروع الإغراء والإغواء. وإذا علم المربي أن المراهق قوي العاطفة، قليل التجربة، هش التفكير، ضعيف النفس، ازداد إحساسه بالمسؤولية من أجل القيام بالحفظ والحماية .

تنمية القدرة على ضبط الاستطلاع:

عملية الضبط عند الإنسان لا تأتي في الغالب بصورةعفوية فطرية محضة. فحتى عمليات الأكل، والشرب، واللبس، والاخراج؛ من حيث نظامها، وكيفياتها، وأعرافها – يتم اكتسابها والتعود عليها عبر التنشئة الاجتماعية، وعن طريق العملية التربوية التراكمية. وهكذا تلبية الفرد لحاجاته النفسية؛ كحاجته إلى التقدير، وتحقيق الذات، وإلى الاجتماع. حيث تنشأ كيفيات الاشباع وطرقه، وضوابطه، من خلال الاحتكاك الاجتماعي، والتراكم التربوي. كذلك تربية وتنظيم الحاجة الاستطلاعية، وضبطها،أمر لا يستغني عنه الفرد؛ إذ أن إساءة استعمالها، وتجاوزها لحدودها، يضر بالإنسان، ويضيع الفائدة المعلقة عليها، فتذهب هدراً .

ويمكن أن تحدد خطوات الضبط الاستطلاعي بما يأتي:

أولاً: إشعار المراهق باطلاع الله عليه، والتأكيد على الرقابة الدائمة، في المناسبات التربوية المختلفة، حيث يربط الفرد بأن هناك كشف لاكتشافاته مهما كانت، واطلاع على استطلاعاته مهما خفيت. قال تعالى: **﴿يعلمُ خائنَةَ الأعينِ وما تُخفِي الصدور﴾**(١) .

وقال تعالى:

﴿قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجَهم ذلك أزكى لهم إن اللهَ خبيرٌ بما يصنعون. وقل للمؤمناتِ يغضضنَ من أبصارهن ويحفظنَ فروجهنّ﴾(٢) .

ثانياً: تكوين الضوابط الحسية والحركية .

وذلك ببناء ضوابط الممرات والمعابر، التي تستخدم للاستطلاع. وباستخدام الحوافز والتعزيزات في المناسبات المختلفة المقصودة والعفوية؛ من أجل تنمية قدرات كبح وامساك الألات والحواس المختلفة – عن الاسترسال والتعدي؛ ومن ذلك:

أ ـ **الغض:** ونقصد غض البصر، والتعود عليه؛ بالتربية، وتذكر العواقب المترتبة على عدمه، من اطلاق البصر، واشباع النظر، الذي هو أول وسائل الاستطلاع وأهم معابره. ومن أجل ذلك حرص المنهج الإسلامي النفسي على توجيه

---

(١) غافر: ١٩ .

(٢) النور: ٣٠، ٣١ .

وقياده؛ قال تعالى:

﴿قل للمؤمنينَ يغُضُّوا من أبصارِهمْ﴾ .

وعن جَرِيرِ بن عبد الله البَجَلِيِّ رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري.[1] وفي رواية «أطرق بصرك» يعني أنظر إلى الأرض. والصرف أعم؛ فإنه يكون بالنظر إلى الأرض، وإلى جهة أخرى[2] .

وقال رسول الله ﷺ – لعلي رضى الله عنه:

«يا علي لا تُتبعْ النظرَة النظرةَ؛ فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[3] .

وعن أبي أُمامة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ «ما من مسلم ينظرُ إلى محاسِن امراةٍ ثم يغض بصرَهُ إلا أخلفَ اللهَ له عبادةً يجدُ حلاوتَها»[4] وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظرةَ سهمٌ من سهامِ إبليسَ مسمومٌ من تركَه مخافتي أبدلتُهُ إيماناً يجدُ حلاوتَه في قلبِه»[5]. وما يصدق على الفتيان المراهقين في هذا يصدق

---

(١) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٣٩/١٣ وأخرجه أبو داود انظر سنن أبو داود ٦٠٩/٢، ٦١٠ .

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٨٥/٥ .

(٣) أخرجه أبو داود: سنن أبو داود ٦١٠/٢ وأخرجه الترمذي أيضاً .

(٤) أخرجه أحمد، انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٨٦/٥ .

(٥) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٨٧/٥ .

الفتيات المراهقات ؛ كما هو نصُّ الآية بأمر المؤمنات بغض البصر؛ سداً لأبواب الشر، وكبحاً لعدوان الاستطلاع، وتمييزاً للمسلمات عن صفة نساء الجاهلية. وهذه الآيات والأحاديث – المذكورة آنفا – تبين ما ينبغي للمسلم أن يتعودو عليه، وأن يعود عليه رعيته من الأبناء والبنات، بالتمرين على غض البصر، من إغماضه، أو صرفه، أو إطراقه، أو إشغاله، أو حجبه – عندما تعرض له الفتنة بصورها المختلفة.

ب ـ **حفظ السمع**: ونقصد به تعويد النفس – والغير – على الإعراض عن المسموعات المذمومة، وعن قبائح الأقوال، ومغرياته الموقعة في الرذيلة، وهي كثيرة عديدة.

والسمع أحد الحواس الخمس الرئيسة عند الإنسان، وهو من أهم المنافذ بل هو أهم منافذ الإدراك الحسي والتعلُّم، فإن فقد البصر لا يمنع من التعلم، لكن فقد السمع يتعذر معه تعلم اللغة وتحصيل العلوم؛ ولذلك ذكر الله السمع وحده، أو مع العقل – في عدة مواضع في القرآن لميزته[1] وبالغ أثره؛ مثل قوله تعالى:

﴿وقالوا لو كُنَّا نسمعُ أونعقلُ ما كنَّا في أصحابِ السعير﴾[2] .

فلابد من نهج سلوك منضبط، عند استخدام هذا المنفذ

(١) انظر محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس ص ١١٨ .

(٢) الملك: ١٠ .

المهم، ولابد من عملية تصفية دقيقة، تتم من خلال سلوك الاقبال والإعراض، بحسب الموضوع والمجال؛ قال تعالى:

﴿والذين هم عن اللَّغوِ معرضون﴾[1] .

وقـال تعالى:

﴿وإذا سمعوا اللغوَ أعرضوا عنهُ وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[2] .

وقـال تعالى:

﴿ولا تَقْفُ ما ليس لكَ به علمٌ إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولا﴾[3] .

جـ **فن السؤال:** ونقصد به أن تكون أسئلة الإنسان موجهة توجيهاً صحيحاً لخدمة التعلم المثمر، والاستطلاع المفيد، مضبوطة بحدود الأدب العام، ولا تجر السائل إلى متاهات، أو تدخلات لا تعنيه. وهذا الباب بابٌ تربويٌّ واسع، للإسلام فيه آداب ومواقف، وأمثلة كثيرة، ومن خلالها يُرَبَّي المراهقون في أسئلتهم على سمت معي؛ فلا يسألون في كل شيء، ولا حول كل شيء، ولا يمضون في الأسئلة الخاصة والشخصية، ولا يتعرضون للمجالات المتجاوزة لحدود عقولهم، وإمكاناتهم، ولا يتتبعون بالأسئلة والتكشيف ما يجرهم إلى

---

(١) المؤمنون: ٤ .

(٢) القصص: ٥٥ .

(٣) الاسـراء: ٣٦ .

الانحرافات السلوكية، والمهالك النفسية. والخلاصة: أنهم قد تربَّوْا على النهج النفسي الإسلامي فيما يقدمون عليه، وما يدعونه من الأسئلة والاستفهامات. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤْكُمْ وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم عفا اللهُ عنها واللهُ غفورٌ حليم﴾[١] .

وفي كثير من الأحيان يكون السؤال مُتَكَلَّفاً لمجرد الاستطلاع البحت، فيترتب على ذلك مضار سلوكية ونفسيه، يندم الإنسان عليها. وفي هذه الآية تأديب للمؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أُظْهِرَتْ لهم تلك الأمور ربما ساءتهم[٢] واضرّت بهم .

وقال تعالى - مبيناً قصور الإنسان، ومحدودية علمه، وتجاوزه في الأسئلة:

﴿ويسألونك عن الروحِ قل الروحُ من أمرِ ربي وما أُوتِيتُمْ من العلمِ إلا قليلا﴾[٣] .

وقال رسول الله ﷺ - ملخصاً بعض القواعد السلوكية الهامة لحياة الإنسان، ومنبهاً إلى خطر التعدي في الأسئلة - فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه -

---

(١) المائدة: ١٠١ .

(٢) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٦٥٩ .

(٣) الاسراء: ٨٥ .

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نَهَيْتُكُمْ عنهُ فاجتنبوهُ وما أمرتكم بِهِ فأتوا منهُ ما استطعتم؛ فإنما أهلكَ الذين مِنْ قبلكم كثرةُ مسائِلهم واختلافُهم على أنبيائِهم»[1].

وفي الباب نصوص وأمثله كثيرة، تبين استطلاعات الإنسان وأسئلته، وكيفيةِ تعاملِ المنهج التربوي الإسلامي معها، فتارة يجاب على الاستطلاع، وتارة يصرف السائل عنه إلى ما هو مفيد، وتارة تُحْجَبُ الإجابة ويستأثر بعلمها اللهُ تعالى. ونشير هنا إلى بعض الأمثلة على ذلك:

قال تعالى:

﴿ويسألونك عن ذي القرنينِ قل سأتلوا عليكم منه ذكرا﴾[2].

فقد أجابهم الله على السؤال إجابة مفصلة، بينت حال ذي القرنين، وهديه وقوته .

وقال تعالى:

﴿يسألونك عن الأهلةِ قل هي مواقيتُ للناسِ والحجِّ﴾[3] .

وقد استعمل هنا الأسلوب الحكيم في الرد على الاستطلاع؛ حيث صرفهم إلى ما هو أهم وأجدى .

وأجابهم بغير ما يترقبون: فقد سألوا عن أجرام الأهلة؛

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) الكهف: ٨٣ .

(٣) البقرة: ١٨٩ .

حيث يطلُعُ الهلال دقيقاً مثل الخيط، ثم يعظم ويستوي، ثم لا يزال ينقص، حتى يعود كما كان. فأجيبوا بالحكمة التي تترتب على تلك الزيادة والنقصان، وهي بيان المواقيت التي يوقت بها الناس عباداتهم، ومعاملاتهم؛ كالصوم، والفطر، والحج، والإجارات، والعِدَد، وغير ذلك، لأن ذلك أولى بالسؤال، وأحق بالاستطلاع[1] .

وقال تعالى:

﴿يسئلونك عن الساعةِ أيَّانَ مُرْساها قلْ إنّما علمُها عندَ ربِّي لا يُجَلِّيها لوقتِها إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ في السمواتِ والأرضِ لا تأتيكم إلاَّ بغْتَةً يسئلونك كأنَّك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمُها عند اللهِ ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾[2] .

وهنا لم يجبْهم الله على سؤالهم، بل بين لهم أن وقتها من علمه الذي استأثر به على خلقه، لا يعلمها غيره، ولا يهتدي إليها سواه – وأكدت الآية – بأسلوب متتابع – هذه الحقيقة المهمة؛ لينتبه المستطلعون فقال سبحانه: **﴿إنما علمُها عند ربِّي﴾ ﴿لا يُجَلِّيها لوقتِها إلاَّ هُوَ﴾ ﴿لا تأتيكم إلا بغتةً﴾ ﴿يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها﴾ ﴿قل إنما علمُها عند الله﴾**. ثم ختم الآية ببيان محدودية علم الإنسان **﴿ولكِنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون﴾** .

---

(١) انظر الشوكاني: فتح القدير: ١/١٨٩ .

(٢) الأعراف: ١٨٧ .

في ضوء هذه الأساليب، وعلى هَدْي هذه التوجيهات ينبغي أن يُرَبَّى المراهقون في السؤال والجواب، فلا يمضى الاستطلاع دون قيد أو شرط، ولا يتم الجواب على الإستطلاع دون حدود أو ضوابط .

د ـ **فن الاستئذان:** وهو منتهى ضبط الاستطلاع؛ حيث يعتاد الناس - والمراهقون خصوصاً - أخذ الإذن عند إرادة السماع، أو النظر، أو السؤال، أو الإقدام على أمر مهما كان. والاستئذان يعد مدخلاً مهماً لفعل الشيء، وممارسته، فإذا تم التحكم به، وضبطه، سلم المراهقون من كثير من التعديات والتجاوزات، الناتجة عن الفضول، وحب الاستطلاع.

قال تعالى:

﴿وإذا بلغَ الأطفالُ منكم الحُلُمَ فلْيَسْتَأْذِنوا كما استأْذَنَ الذين مِنْ قبلِهم كذلك يبين اللهُ لكم آياتِهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾[1] .

فإذا بلغ الطفل الحلم - وهو سن المراهقة - يستأذن على كل حال عند دخوله البيوت، أو غرف الآخرين؛ أو الأماكن الخاصة، من أي نوع، وعلى أي صنف من الناس، من الآباء والأمهات، أو الإخوة، والأخوات، وغيرهم؛ لئلا يفاجيء الآخرين، أو يكشف سترهم، ولئلا تقع عينه أو سمعه على ما لا فائده له به، مما يثير فضوله، ويستتبع استطلاعه.

أخرج سعيدُ بن منصور، والبخاري في الأدب، عن

(١) النور: ٥٩ .

ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: يستأذنُ الرجلُ على أبيهِ وأمهِ وأخيهِ وأختهِ. وأخرج ابن جَرِير والبيهقي في السنن عن عطاء بن يسار أن رجلاً قال: يا رسول الله أأستأذِنُ على أمي؟ قال نعم، قال: إني معها في البيت، قال: استأذن عليها، قال: إني أخدُمُها أفأستأذِن عليها كلما دخلتُ؟ قال: أتحب أن تراها عُريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها» والحديث مرسل[1] .

فالاستئذان قاعدة سلوكية مهمة في تربية الأطفال والشباب، وضبط توجهاتهم، واستطلاعاتهم، بل هو قاعدة شرعية، يترتب عليها أحكام وآثار؛ فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

«لو أن أمرأً اطَّلَع عليك بغيرِ إذنٍ فحذفتَه بحصاةٍ ففقأْتَ عينَه لم يكنْ عليك جُناحٌ»[2] .

وصح عنه أيضاً أنه قال:

«من اطلعَ في بيتِ قومٍ بغيرِ إذنِهِمْ ففقأُوا عينَه فلا ديةَ له ولا قصاصَ»[3] .

إن انتباه المربي لأدب الاستئذان، وتربية الأطفال والمراهقين عليه - يعد من أنجح سبل الضبط، والتحكم بالحواس المختلفة، من السمع والبصر وغيرهما .

---

(١) انظر الشوكاني: فتح القدير: ٥٥/٤ .

(٢) انظر ابن القيم، زاد المعاد: ٣١/٢ .

(٣) انظر ابن القيم، زاد المعاد: ٣١/٢ .

عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: «اطلع رجلٌ من جحرٍ في حجرةِ النبيِّ ﷺ ومعه مَدْرى يحكُّ به رأسَه، قال: لو أعلمُ أنك تنظرُ لطعنتُ بها في عينَيْك؛ إنما جُعِلَ الاستئذانُ من أجلِ البصرِ»[1] .

ثالثاً: منع التعدي الاستطلاعي .

ونقصد بذلك «التجسس» وهو غاية التعدي في الاستطلاع، والإساءة في استخدامه؛ إذ أن ضرره لايقع على الشخص نفسه فقط بل يتعدى إلى غيره، كما أن همه النفسي، وما يترتب عليه من القلق، والحسد، وأحاديث النفس، والهم بالسوء، والإزدواجية في الشخصية، بين الوديع البريء ظاهراً، والمنقب البذيء باطناً كل ذلك - يجعله سلوكاً شاذاً ممقوتاً. ولذلك وجب حظره وإعلان الحرب عليه، وقد ذكره الله في القرآن، ضمن شهوات نفسية أخرى؛ كشهوة الظن، وشهوة الغيبة، وشهوة الغلبة، ووجب على المربي العمل على إغلاق بابه؛ فيقوم بمنع المتربي من تتبع العورات، ومن التبحُّث، والتحسس المذمومين .

ودافع الاستطلاع - وخصوصاً عند المراهقين - يدعوهم أحياناً إلى التجسس بالنظر، أو بالتسمُّع على الأبواب، أو باستخدام الوسائل المختلفة، في تتبع أحوال الناس، وأخبارهم، مما يكرهون الاطلاع عليه. وفي كل ذلك إشباع للفضول، والرغبة الملحة عند المراهقين، وخصوصاً في المسائل الجنسية، وما يتعلق بها سواء بطريقة مباشرة، بالتجسس على

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

الناس، أو عن طريق وسائل الاعلام، من تلفاز، وسينما، وفيديو، وصحافة، مما فيه تكشيف للعورات، وجرح للفضائل، وكشف لما أمر الله بستره وصيانته .

قـال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنِّ إن بعض الظنِّ إثمٌ ولا تجسَّسوا ولا يغتبْ بعضكُم بعضاً﴾[1] .

قال أبو عبيدة: «التجسس والتحسس هو التبحُّث ومنه الجاسوس. وقال يحيى ابن كثير: التجسس: البحث عن عورات الناس. والتحسس: الاستماع لحديث القوم»[2] .

وقد وجه الرسول ﷺ - أيضاً - المؤمنين في هذا؛ فعن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الظنُّ أكذبُ الحديثِ، ولا تحسسوا»[3] .

وقد ورد تفسير التحسس بأنه من الحاسة - إحدى الحواس الخمس؛ ومنه البحث عما يدرك بحاسة العين، والسمع. أما التجسس فورد أنه البحث عن بواطن الأمور[4]. فانظر إلى التأديب النبوي للحواس؛ عن أن تتجاوز في استطلاعاتها، وأن تتعدى حدود ما أباح الله لها، إلى درجة مقيتة مذمومة، تأباها النفس السوية، وينفِر منها الطبع السليم .

---

(١) الحجرات: ١٢ .

(٢) انظر عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير: ٤٧١/٧ .

(٣) أخرجه البخاري؛ انظر ابن حجر، فتح الباري: ٤٩٦/١٠ وأخرجه مسلم أيضاً .

(٤) انظر ابن حجر: فتح الباري: ٤٩٧/١٠ .

تلبية الحاجة إلى الاستطلاع:

لابد من العناية بحاجة المراهق إلى الاستطلاع من الناحية الإيجابية؛ بتمكينه من تلبيتها، بالصور الصحية المناسبة .

والمنع والحماية والضبط - الذي أشرنا إليه فيما سبق - لا يكفي في توجيه الحاج الاستطلاعية، وتربيتها، بل لابد من تقديم البديل الصحيح، الذي يخفض التوتر عند المراهق، بسبب الحاجة الملحة، ويستثمرها في المجالات المفيدة، ويبني شخصيته بتكامل وتوازن .

ويمكن تناول موضوع إشباع الاستطلاع من ثلاثة جوانب متكاملة هي: بيئة المراهق، وطريقة توجيهه، وأنشطته الاجتماعية والمهنية .

أولاً: بيئـة المراهـق:

وهى البيئة التي يحتك بها المراهق، وتحيط به في أغلب أوقاته، وخاصة في بيتـه ومع أسرته، والتي تستطيع أن تجتذب المراهق؛ بما تهيئه وتوفره لتلبية الحاجة الاستطلاعية، ولاشباع تحفُّزِهِ إلى المعرفة، والاكتشاف، ومن ذلك:

أ ـ تزويد البيت بمكتبة شاملة، وجيدة في محتوياتها، وترتيبها، وموقعها، وجاذبيتها، وبساطتها. ولابد أن يهتم المربي بهذه المكتبة اهتمامه بالطعام والشراب والخدمات، وأكثر من اهتمامه بالأثاث، والكماليات، والترفيهيات .

وتكون استفادة المراهق منها وارتباطه بها أهدافاً أساسية، من

أهداف المكتبة .

ولهذا لابد من أن تحتوي المكتبة على مواد تهم المراهق، وتناسب ميوله في هذه المرحلة،ومن ذلك:

١ ـ السهل المختصر من كتب التفسير والحديث والفقه .

٢ ـ الكتب الفكرية المنطقية السهلة .

٣ ـ كتب المكتشفات العلمية، والكتب التي تعلل الظواهر الكونية، والإنسانية، والحياتية .

٤ ـ كتب التراجم والسير، وخصوصاً سير المجاهدين، والقياديين، والعصاميين .

٥ ـ أدب الرحلات .

٦ ـ أدب المذاكرات .

٧ ـ كتب الفتاوىَ .

٨ ـ كتب الأسئلة والأجوبة، في المجالات المختلفة، وخصوصاً: الشرعية، والصحية، والرياضية، والنفسية، والإجتماعية .

٩ ـ كتب القصص الهادفة .

١٠ ـ الأشرطة المسجلة؛ حيث تزود المكتبة بدواليب للأشرطة المنوعة، ومنها ما يهم المراهق، ويجتذب استطلاعه؛ مثل أشرطة الوعظ القصصي، والحديث عن المستقبل الدنيوي، والأخروي. وأشرطة المحاضرات ذات الطابع المنطقي المبسط المبنية على حوار العقل وإقناعه. كذلك أشرطة الأسئلة والأجوبة في المجالات التي أشرنا إليها في فِقْرَة سابقة .

ولابد من مراعاة عدد من الإجراءات، التي تضمن جذب المراهق،

وتحريكه الذاتي، وتضمن سلامة الاستطلاع أيضاً؛ ومن ذلك:

١ ــ أن يقوم المراهق نفسه بشراء بعض الكتب، والأشرطة، وتزويد المكتبة بها .

٢ ــ أن يقوم بترتيب المكتبة، والإشراف عليها إن أمكن .

٣ ــ أن يحرص المربي على سلامة المادة المحتواة، من الكتب والأشرطة: عَقَدِيّاً وشرعياً ما أمكن .

٤ ــ أن لا يفرض اختيار الكتب المقروءة على المراهق فرضاً، بل تترك له الحرية ضمن محتويات المكتبة؛ أي أن الضبط يكون لدخول الكتب والمواد، لا لقراءتها .

٥ ــ تحديد الموضوعات السابقة لا يعني الاقتصار عليها، وإنما أردنا الاشارة إلى أشكال وأنواع الكتب، والمواد، التي تجذب المراهق، وتشده أكثر من غيرها .

٦ ــ اختيار موقع المكتبة، وتزويدها بالأثاث والتجهيزات المناسبة بحيث تكون جذابة ومريحة .

ب ــ تزويد البيت ببعض المواد، والآلات، والكتب العلمية؛ وذلك في مجال الرياضيات، كالآلات الحاسبة، والكمبيوتر؛ للأغراض العلمية، والمُخْتَبِرَاتِ[1]. وفي مجال العلوم، والجغرافيا أيضاً؛ كالنماذج، والخرائط، والأجهزة؛ مما يحفز المراهق على التعلم، والاكتشاف. على أن لا يُغْرِقَ[2] الآباء والأمهات والمربون في هذا الجانب، على حساب الجوانب الإيمانية والعاطفية؛ إذ أن المبالغة بالتزويد في هذا الأمر، والتكثيف العلمي، والآلي في بيئة المراهق – تفسد الذوق وتضعف العاطفة .

---

(١) تسمى أحياناً بالمعجزات .

(٢) أغْرَقَ في كذا: أي أكثر منه، وبالغ فيه .

ج ـ تزويد البيت بأدوات اللعب، ووسائل الترفيه الاكتشافية، التي تساعد على شحذ مواهب المراهق وقدراته وتدريبها، وتوظيف الأنشطة، والأوقات الفائضة عند المراهق بطريقة مقبولة، ومحبوبة؛ إذ أن جو اللعب، والترفيه، يتضمن إقبالاً وتحفُّزاً، لا نجدهما في الأجواء الجادة، والعلمية .

ثانياً: طريقة توجيه المراهق:

ويتضمن أسلوب التعامل، والحوار، والتثقيف، وطابع العلاقة، والاتصال في جوانب التوعية والتعليم، بين المربي والمتربي. وهو أمر بالغ الأثر على شخصية المراهق؛ إذ أن أسلوب الحوار، وطابع العلاقة الثقافية مكوِّن ومشكِّل أساسيّ لطريقة التفكير، وللبنية المعرفية الواعية والمستطلعة؛ ولقد كان الرسول ﷺ نموذجاً رفيعاً، في أسلوب الحوار، ونوع العلاقة؛ كما أشرنا إلى ذلك سابقاً؛ وكما سنذكره فيما يأتي:

ومن الأساليب والإجراءات الداخلة في هذا الباب:

أ ـ استكشاف رأي المراهق واستطلاع مواقفه في القضايا، والمناسبات المختلفة؛ وذلك باستشارته في الأحداث، وعند المشكلات، وبإلقاء الأسئلة، والاستفسارات، وبطرح الأفكار، وتحريك الذهن، وبإثارة مشكلات وطلب حلولها. كل ذلك وغيره يمكن أن يستخدم، لإثارة وعي المراهق، وإشباع رغبته، في الاستطلاع والاكتشاف، ومثل هذه الأساليب تشد المراهق وتستهويه .

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يستخدم هذا الأسلوب في التعليم والتوجيه مع الصحابة، وكانت نسبة كبيرة منهم شباباً. وسنذكر بعض الأحاديث؛ للتمثيل، لا للحصر. وهي تدل على

أهمية هذا الأسلوب، في التأثير على الأفراد، والتجاوب مع حاجاتهم، وطرائق تفكيرهم:

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبروني بشجرة مَثَلُها مثَلُ المسلمِ؛ تُؤْتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها، ولا تَحُتُّ ورقَها، فوقع في نفسي النخلةُ فكرهتُ أن أتكلَّمَ وثَمَّ أبو بكر وعمرُ، فلما لم يتكلما قال النبي ﷺ: هي النخلةُ. فلما خرجتُ مع أبي قلت: يا أبتاهُ وقع في نفسي النخلةُ، قال: ما منعك أن تقولَها؟ لو كنتَ قلتَها كان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا»[1] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المُفْلِسُ؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلسَ من أمتي يوم القيامة، من يأتي بصلاةٍ، وصيامٍ، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا؛ فيُعْطَى هذا من حسناتِه، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حسناتُه قبلَ أن يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحت عليه، ثم طُرِحَ في النار»[2] .

ب ـ الجدة والحيوية في أساليب التعامل، والحوار، وفي الموضوعات.

والتجديد يعد رافداً مهماً في تلبية استطلاعات المراهق، وعاملاً مؤثراً في تقبل توجيه الكبار؛ فهو يكره التكرار، ويمقت الروتين.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

وإذا كانت الموضوعات المطروحة جديدة وملفتة أو مثيرة فإنها تشد المراهق، وتشبع تطلعاته، كما أن حيوية الحوار، وجدة الأساليب، والطرق المستعملة في عرض النصائح، والتوجيهات، والمعلومات – تساعد على جذب المراهق، وتدعوه للنظر، والتحصيل، المبنيين على اندفاع داخلي، واستطلاع ذاتي. وهذه الجدة والحيوية في الموضوعات والأساليب لا تقتصر على مجال دون مجال، بل يجب أن تشمل جلسات الأبوين مع أولادهم، و الإخوان مع من دونهم، والأساتذة مع طلابهم، والمشايخ في حِلَقِهم ومع تلاميذهم، والدعاة مع جمهورهم من الشباب، والقيادات بأنواعها مع اتباعهم. إن شعور الشباب بالجدة والحيوية فيما يطرحه الكبار يؤدي إلى مزيد من التعلق، والإقبال على المواد المعروضة، والمعلومات المبذولة .

ج ـ ربط المراهق بالمبتكرين ورجال العلم المجددين .

وهذه الفِقْرَةُ متصلة بما قبلها؛ إذ أن الجدّة والتجديد عنصران مطلوبان في تلبية استطلاع المراهق، ويمكن أن نحصل على ذلك بربط المراهق بالعلماء، والمحاضرين، والدعاة – من ذوي التجديد في موضوعاتهم، والإثارة، والحيوية في أساليبهم، ومن ذوي القدرة على طَرْقِ موضوعات الشباب، ومشكلاتهم، والمشاركة الناجحة في حلها، بأساليبَ متعددةِ ومتجددة .

ولقد بدأ المربون ينتبهون لهذا الاجراء، وصاروا يقتنون الأشرطة

المسجلة المفيدة، ذات الطابع الحيوي المثير، والمتجدد، وتزويد الفتيان والفتيات بها، وتهيأ للشباب مواطن يجدون فيها المحاضرات والدروس، والندوات، والمواعظ، التي توفر تلك الجدة والحيوية والإثارة، وكان لذلك تأثيرٌ واضحٌ في جذب الشباب واستقطابهم. وعندما يهتم المربي بهذا الإجراء في مجالات أوسع وأعمق عند التعامل مع المراهق – فسيجد ذلك أسلوباً ناجحاً، في تربية المراهق، وفي الاستحواذ على استطلاعاته. وهذا الإجراء والإجراء الذي قبله موجود بوضوح في الطريقة التربوية القرآنية والنبوية، فنماذج وأمثله التنويع في الأساليب، والتصريف في التعبير والتجديد في الموضوعات، والمحتويات – كثيرة مشهورة في القرآن والسنة .

ثالثاً: أنشطة المراهق:

تعد فترة المراهقة من أشد فترات العمر نشاطاً وحيوية إن لم تكن أشدها على الإطلاق وكما شرحنا في الباب الأول من الكتاب – يحدث للمراهق تحولات نوعية في جسده، وعقله، وانفعالاته، واستعدادته الاجتماعية، توصله إلى قدر من النضج والاكتمال. وهذه الظواهر تجعل المراهقة فترة نشاط، وتفتح، وحركة، وتطلُّع. وهي فرصة ثمينة للاستثمار، والتوجيه، والتأثير في شخصية الفرد المستقبلية؛ لكن ذلك يكون وفق شروط معينة منها: ملائمة الأنشطة للحاجات الخاصة بالمراهق. وملائمة الأسلوب التربوي لطبيعة المراهق العقلية، والانفعالية، التي أشرنا إليها في أول الكتاب .

إن ظواهر: الحيوية، والتحفز، والنشاط، مرتبطة بالحاجة الاستطلاعية

الواعية، في مرحلة المراهقة. ولابد من وضع هذه الحاجة في الاعتبار عند توظيف الحيوية والنشاط. وسنذكر نماذج من الأنشطة والأعمال التي تستثمر الحاجة الاستطلاعية، والتي يمكن أن تساهم في بناء شخصية المراهق:

أ ـ الرحلات والجولات الاستطلاعية:

وقد كان ميدان الجهاد، وسرايا الاستطلاع، وتعدد أمكنة الدعوة، ونوع البيئة التي تميل إلى الطبيعة والفطرة في عهود المسلمين الأولى - مجالاً مناسباً لتلبية الحاجة الاستطلاعية وغيرها، ولتحفيز الشباب على المهاجرة والمشاركة الجهادية والدعوية خارج إطار البيئة - سيرة عملية يجب أن تُحْتَذَىٰ .

وفي هذا الجانب يتاح للمراهق - وللشاب عموماً - فرصة الاطلاع على بيئات جديدة، والتعرف - بطريقة ميدانية محببة إلى النفس - على كثير من الأحداث والأعمال، والمعالم، والمعلومات. ويشجع المراهق على الاستفادة من رحلاته في هذا الجانب؛ فلا تكون رحلاتٍ ترفيهية تنفسية فقط .

والرحلات الاستطلاعية أو التي يمكن أن تلبي حاجات استطلاعية - متنوعة وعديدة منها:

١ ـ رحلات الحج والعمرة: وفيها يتم الاطلاع على أماكن ومواقع مهمة؛ منها المشاعر المقدسة، ويتم الاطلاع العملي على العبادات المتعلقة بالحج والعمرة .

٢ ـ الرحلات إلى المواقع التاريخية والجغرافية، كمواقع الأحداث، والغزوات، والظواهر الطبيعية الملفتة .

٣ ـ الرحلات للاطلاع على المنشآت الصناعية، والمدنية، والعسكرية،

والعلمية، وغيرها .

٤ ـ الرحلات إلى مواطن الطبيعية الخلابة، والبيئة الأصلية المؤثرة، التي لم تتعرض لها يد البشر، والتي تربط الشاب بالقدرة الإلهية، والحكمة الربانية .

٥ ـ الرحلات الجهادية؛ للاطلاع على البيئة الجهادية، والمجاهدين ومساعدتهم، وتشجيعهم .

ويفضل أن تدعم الرحلات الاستطلاعية بالشرح، والربط العلمي بالموضّحات إن أمكن، ويقوم بذلك الأب والأستاذ والمربي والداعية. أو بتزويد المراهق بالمراجع، والخرائط، ونحوها .

ومن المؤسف أن كثيراً من الآباء والمربين لا يراعون هذا الجانب، ولا يهتمون به، وتمر مناسبات ورحلات وأحداث، لا تستثمر، فضلاً عن أن يقوموا بمثل هذه الرحلات إبتداءً .

ب ـ التعرف على الذات:

ونمو الذات، والاعتداد بها، وإبرازها، وتفكير الفرد في نفسه، وموقعه، ومستقبله – من المظاهر البارزة في المراهقة؛ كما أشرنا إلى ذلك في الباب الأول. وقد أشار إليها العديد من الباحثين، وحاولوا إصلاح هذا الجانب، وتربيته في الاتجاه الصحيح[١]. ولعل من أنجع السبل في تربية هذا الجانب إستثمار الحاجة الإستطلاعية في تنمية الصورة الصحيحة للذات، وفي مساعدة المراهق على معرفة نفسه بأبعادها الحقيقية .

---

(١) مقداد يالجن ويوسف القاضي: علم النفس التربوي في الإسلام ص ١٢٩-١٣٣ .

والمراهقون يحبون الاطلاع على نفوسهم، وما يحكمها من سنن، وطبائع، وما تنطوي عليه من تطلُّعات، وآمال والآم، من خلال القراءة المباشرة لما يكتب حولهم، وحول مرحلتهم، ومشكلاتهم، ومن خلال ما يسمعونه من الراشدين، وأصحاب الخبرة، من تحليلات، ودراسات، ومعالجات، واكتشافات – عن الشباب. ومن خلال الاطلاع والتتبع لقصص الشباب، ومغامراتهم، ومشاركاتهم في الوسائل المختلفة. فهذا مجال رحب ومفيد لاستثمار الاستطلاع عند المراهقين، إذا تم تنشيط الشباب، وتحريكهم للتعرف على نفوسهم من خلال البرامج، والكتابات، والنشاطات الذاتية الموجهة توجيهاً صحيحاً، وسليماً.

ج ـ حل المشكلات ووضع الخطط:

يعتقد بعض الباحثين[1] أن الحداثة، والغموض، والتعقيد، عناصر إذا توفرت في الموضوع فإنها تستجلب استطلاع الفرد، واندفاعه للنظر، والتفكير، والعمل. ومن ذلك الموضوعات الملحّة، والجديدة، والتي تحتاج لوضع خطط عمل. والمشكلات والعقبات التي تواجه الفرد والأسرة والصحبة، وتحتاج إلى حل، والقضايا أو الأشياء المُلْفِتَة، والغامضة، والتي يتعرض لها الإنسان، وتدعو لإزالة الغموض، والوصول إلى صورتها الجلية. وانطلاقاً من ذلك فإن المربي يستطيع استثمار استطلاع المراهق واستجلابه بتعريضه للمشكلات

(١) انظر مثلاً أي. بيل: الأسس النفسية في التربية، ترجمة صبحي عبد اللطيف المعروف ص١٢٨، ١٢٩ وانظر أيضاً أحمد عزت راجح: أصول علم النفس ص ٩٢ .

ليشارك في حلها، والموضوعات أنواع، منها: الدعوي، والأسري، والاجتماعي، والمدرسي، والشخصي. ومنها ما يستطيع المراهق القيام به بنفسه. ومنها ما يستشير فيه. ومنها ما يشارك فيه غيره.

* * *

ثانيـاً: الحاجـة إلى الهويـة

الهوية مطلب للإنسان يميزه عن غيره من سائر المخلوقات؛ لأنه يتميز بالعقل والقدرة على اختيار بين البدائل المتاحة، من مادية ومعنوية. وكل إنسان له هوية، لكن هذه الهوية تختلف في درجة سوائها وصحتها مقارنة بالمعايير النموذجية للهوية السوية. وقبل التطرق إلى الحديث عن حياة المراهق في هذا الجانب لابد من عرض تعريف موجز للهوية؛ ليكون المقصود من مفهوم الهوية معروفاً عند القاريء .

فالهوية تعني «تعريف الإنسان لنفسه فكراً وثقافة وأسلوب حياة» كأن يقول المرء عندما يسأل «من أنت؟» «أنا مسلم» أو «أنا شيوعي» أو «أنا علماني». وقد يكون الجواب أكثر دقة؛ وذلك بالإحالة على منهج الحياة، فيقول مثلاً: «أنا منهجي الإسلام» أو «أنا منهجي الشيوعية» أو «أنا منهجي العلمانية». ويكون الجواب أكثر تفصيلاً؛ فيقول - مثلاً - «أنا مؤمن ملتزم» أو «أنا من طبقة العمال» أو «أنا من الحداثيين» ويمكن أن نعرف مفهوم الهوية أيضاً بأنه «المفهوم الذي يكوِّنه الفرد عن فكره وسلوكه، اللذان يصدران عنه، من حيث مرجعهما الأيديولوجي والاجتماعي» .

وبهذه الهوية يمكن أن يتميز الفرد، ويكون له طابعه الخاص. والفرد قد يشترك مع مجتمعه في إطار عام، يحدد الهوية العامة، لكنه يختلف في درجة الوضوح والاقتناع والالتزام بهذا الإطار .

والهوية ذات علاقة أساسية بمعتقدات المرء، ومسلماته الفكرية. وهي المحرك لسلوك الإنسان، والموجه الأول للاختيار عند تعدد البدائل .

وإذا كانت الهوية ثابتة مستقرة أكسبت سلوك الفرد ومواقفه ثباتاً واستقراراً، وإذا كانت هويته مهزوزة مضطربة أكسبت السلوك اهتزازاً واضطراباً.

وتعد هوية الشخص بمكوناتها وطريقة تربيتها وتاريخها - من المؤثرات المهمة في سمات الشخصية؛ فيقال شخصية قوية، أو ضعيفة، وشخصية مستقرة، أو مهزوزة. وشخصية واضحة، أو غامضة. وشخصية ذات مبدأ أو متقلبة. وهكذا .

إن المراهق - وهو الذي راهق سن البلوغ - ترد عليه أسئلة كثيرة تدل على إحساسه بالقيمة، والتميز، وتشير إلى شعوره بالاختلاف عن الأطفال الصغار، فضلاً عن الكائنات الحية الأخرى، المدفوعة بالحاجات البيولجية؛ للمحافظة على الحياة. كذلك تلح على المراهق مشاعر وأفكار تقرِّبه من الراشدين، وتضمه إليهم، وتبعده عن حياة الصغار المغرقة في البساطة، واللهو، واللعب، والاشباع العضوي للحاجات .

ولابد أن تكون الحياة عند المراهق ذات معنى وهدف، ولابد أن ينضوي تحت شعار يكسب الحياة قيمة وجدية. ومن هنا ترد على المراهق التساؤلات مثل: «من أنا؟» و«ما غاية وجودي؟» و«ما هي وظيفتي في الحياة، وفي المجتمع؟» و«إلى أي درجة أنا حر في نفسي، وفي سلوكي، وأعمالي، وفي علاقاتي بماحولي؟» ويبدأ التفكير في غايات الأشياء، والأحياء ووظائفها، والبحث عن الأسباب والعلل للمواقف، والأوامر والنواهي، والمقت للتسليم الأعمى، والكره للتلقين. والمراهق وإن سَلَّم بالأمر وخضع ظاهراً إلا أنه

في الغالب يفكر، ويتساءل، ولا يستسلم داخل نفسه بسهولة. بخلاف الأطفال الذين يتعاملون مع القضايا والأحداث، والأوامر والنواهي – بظاهرها، وحجمها في الحال معزولة عن خلفياتها، وعللها البعيدة .

والمراهق يحس أنه بحاجة ملحة إلى البرهان، والدليل، في تعليل الظواهر، وتبرير الضوابط، والأوامر، ويحس باختلاف واضح – في هذا الشأن – بين مرحلته الحالية (البلوغ وما بعدها) وبين مرحلته السابقة (الطفولة والصبا) وتنبعث هذه الحاجة من عوامل ذاتية، واجتماعية – مرتبطة بالتغيرات التي تحدث للمراهق. **فالعوامل الذاتية** تتمثل في النضج العقلي والمعرفي، وفي النضج النفسي والانفعالي، وكلا النوعين من النضج يؤهلان المراهق لتغيير نظرته المحدودة إلى نفسه، وإلى الأحداث، والأشخاص والحياة؛ لتكون نظرة فاحصة وبعيدة. إن قدرة المراهق على التجريد، والتأمل، والتفكير. وقدرته على الفهم الزمني بأبعاده المختلفة (الماضي والحاضر والمستقبل) – تدعو لأن يبني مواقفه وآراءه على أساس أكثر منطقية وحرية ومبادأة. وألاَّ يستسلم لأنماط الحياة والسلوك القائمة بعشوائية، بل لابد – مادام يملك هذه القدرات العقلية – أن يشك، ويسأل، ويفكر، ويقتنع، وأن يكوِّن هوية خاصة؛ توجه حياته وتحكمها. وهذا هو ما يحسه المراهقون بدافع النضج، والتحول النوعي في التفكير .

كذلك النمو النفسي الذي يتمثل في المستوى المتقدم في تنظيم الإنفعالات، والعواطف، والقدرة على توجيهها، وتوظيفها. فهو أكثر قدرة من ذي قبل على كظم الغيظ، وتحجيم الخوف، وضبط الانفعالات، وتحمل الصدمات العاطفية، والنفسية، وأكثر فهماً لها. وفي مرحلة المراهقة تأخذ الانفعالات والعواطف في التميُّز، والارتباط بموضوعاتها المعتادة في

حياة الكبار. فبدلاً من أن يكون الحب والهيام مركزاً على الأجرام المادية والمتع المؤقتة من لعب وألعاب ومأكولات... إلخ يكون موجهاً إلى الأشخاص والمبادىء، أو إلى الهوايات الأكثر تعقيداً، مما يحمل طابع التنظيم، أو المنافسة، أو النموذج. وبدلاً من أن يكون الخوف صادراً عن المؤذيات البسيطة؛ كالظلام، والصوت العالي، وكالقطة، والحشرة – يتوسع ليتجه إلى المخاوف الإجتماعية، والمعنوية؛ كالخوف من الفشل، والرفض الاجتماعي، والخوف من المصائب، والحوادث، والخوف من الحروب والكوارث .

هذه التحولات الانفعالية والنفسية تدعو المراهق بطريقة عفوية إلى تهذيف سلوكه، وجعله ذا معنى وغاية. فالخوف من الظلام لا معنى له، ويجب أن يتحول إلى موضوعات أكبر ذات معنى في حياة الفرد والمجتمع. والحب بدلاً من أن يكون موجهاً إلى دمية أو لعبة يتحول إلى المبادىء، والأشخاص، والنماذج. وهكذا فإن المراهق يحتاج إلى أن يكون في حياته أكثر تعليلاً، وتهديفاً لمشاعره، وعواطفه، وانفعالاته. ويعدُّ هذا من المهيئات المهمة والممهدات العملية لتبلور هوية المراهق واستقرارها .

وأما **العوامل الاجتماعية** الملحة لتكوين الهوية، فتتمثل في تغير نظرة المجتمع للمراهق، من حيث مرحلته، ووظيفته، وأهدافه. وفي تغير نظرة المراهق إلى نفسه، من حيث المهمة، والدور الاجتماعي المنتظر منه. والنظرتان تلحّان على الفتي والفتاة وتنبهانهما إلى أن عهد البساطة، والاعتماد على الآخرين قد انتهى، ولابد من صورة جديدة للتعامل، والتصرف، ومن تغيير في المواقع، والوظائف في الأسرة، والرفقة، والمدرسة، والمجتمع .

ويبدأ إلحاح الأسئلة مثل: ما وظيفتي؟ ما مهمتي في الأسرة؟ كيف ينظر الناس إليّ؟ كيف أنجح وأتفوق للوصول إلى الموقع الحقيقي في الخارطة الأسرية والاجتماعية؟ .

إن هذا الشعور – الذي أشرنا إلى جوانب منه عند حديثنا عن الحاجة إلى العمل والمسؤولية[1] – مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبحث عن الهوية، وبمحاولة المراهق وضع رجله على المرساة التي تساعده على استكمال المسيرة، نحو تحقيق غاياته بطريق صحيحة ومثمرة .

أزمة الهوية المعاصرة:

كل ما ذكرنا يُبدي حاجة المراهق إلى الضبط والنظام في حياته، بقدر يتلاءم مع نضجه المعرفي، والانفعالي، والاجتماعي المشار إليه. وإذا اتضحت القواعد والضوابط ومنطلقاتها بانت الأسباب والعلل للمراهق بعد مرورها من داخله، واقتناعه بها، وأمكن لهويته أن تكون واضحة مستقرة، ولسمات الشخصية أن تكون ثابتة راسخة. أما عندما تكون الحياة عنده كالطلاسم بسبب من اضطراب القواعد والغايات، وبسبب من التناقض في فهمها وتطبيقها فإن المراهق ينشأ بهوية مهزوزة، غامضة، وبشخصية ممسوخة، لا مبدأ لها .

ولعلنا نورد هنا بعض الأمثلة الواقعية، لمعاناة المراهق من فقد الهوية، واهتزازها، أو غموضها. وللتناقض الذي يعيشه بين التنظير، والتطبيق. وبين المثالية، الواقعية؛ حتى إنه ليصل إلى حدّ الازدواجية في الشخصية .

---

(١) راجع ص ١٠١ وما بعدها من هذا البحث .

فالمراهق في المدرسة قد يطلب منه زميل آخر بحثاً، كان قد كتبه في أحد المواد، لأحد المدرسين؛ وذلك ليقدمه هذا الزميل لمدرس آخر. وقد يطلب منه ذلك الزميل – أو غيره – أن يزوده ببعض الإجابات في قاعة الامتحان بطريقة، أو بأخرى. وقد يقوم زملاء المراهق بدعوته إلى حفل ساهر، على أنغام الموسيقي، وآلات الطرب، ولعب الشطرنج. وقد يدعي إلى حفل مختلط، وفيه التبرج والسفور. أو يشترك في رحلة فيتعرض لحفلات الرقص، ومجالس الخمور، ومواطن الاستعراض، والإغراء، وبيع الأعراض. وغير ذلك من المواقف والأعمال، والمسالك المحتاجة إلى قرارات تتعلق بمباديء الفرد، وقيمه التي يؤمن بها. ماذا سيفعل الشاب عندما يواجه هذه المواقف؟ هل سيختار أم سيحتار؟ إذا لم تكن قد استقرت الضوابط، والمباديء، والقيم عند المراهق فقد يقع فريسة للصراع، والقلق، الناجم عن فقد الوضوح، أو فقد الاقتناع بالنظام الذي يجب أن يتبعه في حياته. وعليه فإن هوية المراهق تكون متذبذبه، لا تتسم بالتميُّز، ولا تنطلق من مباديء ثابتة، بل تعيش على المزاجية والتميُّع.

ويزيد الأمرَ صعوبةً وتعقيداً على المراهق التناقضُ الذي يظهر في الجماعات المرجعية والتربوية، كالآباء، والأمهات، والإخوة الكبار، والمعلمين، والمسؤولين؛ فكثير من هؤلاء يعاني انحلالاً وتميُّعاً في شخصيته، ويتسم بالضعف، والاتكالية، والفردية في سلوكه، مع أنهم يدعون إلى المثل العالية، والقيم السامية، حيث يكون التوجيه والتعليم في اتجاه، والممارسة الفعلية في اتجاه آخر. وهذا التناقض أيضاً قد يوجد في المجتمع العام، وعلى مستوى الأمة، عندما يرفع شعار الحرية ويمارس الحجر، والكبت، أو ينادي بالمساواة والتكافؤ فتمارس الواسطة والمحسوبية،

أو يدعي إلى الإخلاص والنزاهة ويمارس الاختلاس والرشوة، أو يحثُّ على البذل والتضحية وتمارس النفعية والأنانية، وقد يرفع شعار يشمل كل ذلك؛ مثل الدين والإيمان والمُمَارسُ هو الفساد، والفجور، والضلال المبين. وهذا بلا شك يوقع المراهقين، والشباب، بل والأطفال في حيرة ما بعدها حيرة، فتنشأ هويّاتهم الثقافية دون مقومات معتبرة علماً وعملاً، ودون معايير ثابتة يرجع إليها كل المجتمع فيما يسلك وما يدع. ويترتب على ذلك التعاسة التي يعيشها الشباب بسبب اضطراب قراراته، وتناقض أقواله وأعماله، وبسبب الصراع داخل النفس بين الآمال والأعمال، وبين الواقعية والمثالية، وبين الضمير الناقد والسلوك المنقود. كل ذلك بسبب من بيئته، ومجتمعه، اللذان يعيشان الصراع والتناقض نفسه؛ كما أشرنا .

إذا تبين المقصود بالهوية، ومدى حاجة المراهق إليها، وتبين حال المراهقين في المجتمعات المسلمة المعاصرة، وما تعيشه من تيه، وحيرة، وتناقض – ننتقل إلى الحديث عن الهوية السوِّية كما يطرحها المنهج النفسي الإسلامي .

الهويـة السويـة:

ما هي الهوية السوية؟ وكيف نلبي حاجة المراهق إلى تلك الهوية بالأسلوب الصحي المثمر؟ يمكن تحديد الجوانب العملية لتربية الهوية السوية في ثلاثة عناصر متعاونة هي:

١ ـ التأكيد العام على أهمية وحدة الشخصية، وأهمية ثباتها على المبدأ .

٢ ـ بناء هوية المراهق من خلال التنشئة الاجتماعية الإسلامية، وفق

المعايير والضوابط الشرعية المحددة في المصادر الإسلامية .

٣ ـ اعتماد الأساليب التربوية المتنوعة والملائمة في تربية هوية المراهق وتأسيسها .

فأما الجانب الأول: فيرشد المربي إلى خطورة التقليد الأعمى، الذي ينمي عن فقدان إعمال الفكر، وفقدان الشخصية المستقلة المتميزة. قال تعالى:

﴿بل قالوا إنَّا وجدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِمْ مهتدون• وكذلك ما أرسلْنا من قبلِكَ في قريةٍ من نذيرٍ إلَّا قال مترفُوها إنَّا وجدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِم مُقْتَدُون• قال أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بأهدى مِمَّا وجدتم عليهِ آباءَكم؟ قالوا إنَّا بما أرسلتم بهِ كافرون﴾[1] .

فقد ألغى هؤلاء عقولهم، وبصائرَهم، ورضوا بأن يكونوا تبعاً لآبائهم، وأجدادهم، وأقوامهم، أخطأوا أم أصابوا، أحسنوا أم أساءوا، حالهم كحال الشاعر الذي يقول:

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

وقد نفي القرآن أن تتصف الهوية السوية بالسلبية والجمود؛ قال تعالى:

﴿والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِمْ لم يَخِرُّوا عليْها صُمًّا وعُمْيَاناً﴾[2] .

فالشخصية المؤمنة يجب أن لا تكون إمعة، بل تكون متعقِّلة، ومنتفعة

---

(١) الزخرف: ٢٢-٢٤ .

(٢) الفرقـان: ٧٣ .

بما تسمع، وعلى بصيرة من أمرها، ويقين واضح[1] .

وقد نبه المنهج الإسلامي إلى أن ذلك النهج المتميّع يعد عيباً في الشخص، يجعله في مهب الريح، تتجه به أنّى اتجهت، لا قيمة له، ولا شأن. وبعبادة أخرى لا هوية له تميزه، وتكسب آراءه ومواقفه أصالة واستقلالاً؛ قال رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا إمعة؛ تقولون: إنْ أحسنَ الناسُ أحسنّا، وإن ظلموا ظلمْنا، ولكن وَطّنوا أنفسَكم إنْ أحسنَ الناسُ أنْ تُحْسِنوا، وإنْ أساءوا فلا تَظْلِموا»[2] .

والإمّعة هو الذي يتبع كلَّ ناعق، ويقول لكل أحد: أنا معك؛ لأنه لا رأي له، ولا شخصية ثابتة وهو المقلِّد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره، بلا رَوِية، ولا تحصيل برهان[3] .

وقد تتحول المواقف المضطربة والتبعية المتعددة إلى ازدواج في الشخصية، وإلى تعدد في الوجوه التي يحملها الشخص نفسه، وهذا ما حذر منه الإسلام؛ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ شَرِّ الناسِ ذا الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجه»[4] .

حتى إذا كان الوجه الخارجي لسلوك الشخص وممارساته مختلفاً تماماً في موقع عنه في موقع آخر، مع إيمان بهذه التعددية – عُدَّ ذلك نفاقاً

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم: ٥/١٧٢ .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث حذيفة رضي الله عنه: تحفة الأحوذي ٦/١٤٥، ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق ٦/١٤٥ .

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

اعتقادياً، ومرضاً نفسياً؛ قال تعالى في وصف المنافقين:

﴿وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾[1].

وقال تعالى:

﴿يخادعون اللهَ والذين آمنوا وما يخدَعُون إلَّا أنفسَهم وما يشعرون. في قلوبهم مرضٌ فزادهُمُ اللهَ مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يَكْذِبُون﴾[2].

ومن أخطر الإنحرافات التربوية والنفسية أن ينشأ المراهق بهوية مضطربة أو متعددة، وهو طريق يؤدي إلى القلق والشك والصراع النفسي، فضلاً عن التميُّع السلوكي، والخلقي، والاضطراب في القرارات، والمواقف التي تُبْنَى عادة وَفْقَ المجاملات، والمصالح والدوافع الشخصية، لا وَفْقَ المباديء الثابتة، والضوابط المُعَمَّمَة.

أما الجانب الثاني المتعلق بالتوجيه السلوكي للفرد وفق الضوابط والمعايير الشرعية - فإن المنهج الإسلامي يعتبر منهجاً شاملاً للضبط السلوكي والفكري، بحيث يتربى الفرد منذ مراهقته[3] وفق ضوابط وشروط محددة، وبحيث يستطيع الشاب أن يحاكم المستجدات من مواقف وأحداث

---

(١) البقرة: ١٤.

(٢) البقرة: ٩، ١٠.

(٣) إنما خصصت مرحلة المراهقة بالذكر هنا لأنها موضوع الدراسة والبحث، وإلا فإن عناية الإسلام بالفرد ومنهج تربيته يشمل الإنسان من حين ولادته، بل من قبل ذلك حين يوصي بحسن اختيار الزوجة التي ستصبح أماً.

وأشخاص إلى هذه الضوابط؛ فينشأ بهوية مبكرة، تحميه من التيه والضياع، ومن الصراع النفسي والقلق .

ويراعي المنهج الإسلامي - بضوابطه وشروطه - فطرة الإنسان، وطبيعته التي خلقه الله عليها؛ فلا يصادمها، ولا يكلفها ما لا تطيق. وهذا المنهج الإسلامي منهجٌ تدرّجي في تطبيق الضوابط على سلوك الفرد .

والانضباط الفكري والسلوكي - أوبعبارةٍ أخرى الهوية التي يبنيها الشاب المسلم تتفاوت بحسب البعد والقرب من هذه الشروط والضوابط، فقد يفقد الشاب الهوية تماماً بالفقد التام للإنضباط، وقد يكون بنصف أو ربع هوية؛ بانضباطه الجزئي. وقد تكون هويته كاملة، أوشبه كاملة؛ بالانضباط التام .

والضبط السلوكي والفكري يتمثل في تلك التدرجات التكليفية للمسلم من دائرة الأصول إلى دائرة التطوعات. كما يوضح الشكل (٤):

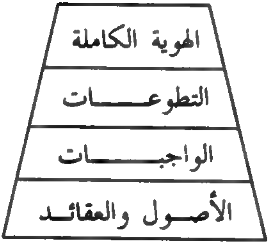

شكل (٤) يبيّن التصاعد في التكاليف لبناء الهويَّة

ولن نتعرض لهذا الموضوع بالتفصيل؛ إذ أنه موضوع واسع، ليس هذا مقام تفصيله، وحسبنا أن نشير - هنا- إلى المقصود باختصار؛ فقد بين المشرِّع الحكيم كل ما ينبغي أو يجب أو يستحب للمكلف أن يفعله أو يدعه؛ فخاطب الإنسان بالأصول والعقائد التي يلزمه أن يَدِين بها، وأن

تتأسس حياته عليها؛ كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر. ومتعلقاتها، وهذا الجانب هو أساس الهوية، وقاعدتها التي لا يسع الشباب أن يتجاوزوها أو يهملوها، ولا يسع المربين أن يتقاعسوا عن تأسيسها، وتنميتها في نفوس المتربين .

والدرجة الثانية هى مخاطبة المكلف بالواجبات العملية، الفردية والاجتماعية؛ كالزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، والأمانة، والصدق، وحفظ الفرج، وغض البصر، وترك الغيبة والنميمة، وتجنب السخرية، وسوء الظن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى... إلخ ويلاحظ أنه يشمل جانبين: الفروض أو الواجبات، والمحرمات أو المنهيات. وهذا الجانب يمثل الضوابط العملية،والصور التطبيقية للهوية المسلمة الحية الفاعلة .

وتضعف هوية المسلم أو تختفي، وتقوى أو تبرز، بحسب التطبيق والإنضباط بهذه الدائرة. وفي هذه الدائرة يظهر التميع والثبات في الهوية؛ إذ أنه جانب عملي تعاملي، لابد أن يبدو على سلوك الفرد، وهيئته، وتصرفاته اليومية، والحياتية، وهذا واضح من خلال الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الملزمة للمسلم، والضابطة لسلوكه وتعامله؛ من ذلك قوله تعالى:

﴿ليس البرَّ أنْ تُوَلُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرِقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتَى المالَ على حبِّهِ ذَوِي القربَى واليتامَى والمساكين وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ والموفُونَ بعهدِهِمْ إذا عاهَدُوا

والصابرينَ في البأساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ أولئك الذين صدقوا وأولئك همْ المتقون﴾[1].

وقــال تعالى:

﴿قل تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم ألّا تُشرِكوا بهِ شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادَكم منْ إملاق نحن نرزُقُكُمْ وإياهُمْ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلّا بالحقِّ ذلكُمْ وصّاكُمْ به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلّا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشُدَّهُ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ لا نُكَلِّفُ نفساً إلّا وُسْعَها وإذا قلتم فاعدِلوا ولو كان ذا قُرْبى وبعهدِ اللهِ أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكَّرون﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الحلالَ بَيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بَيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهاتٌ لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ مِنَ الناسِ، فمنْ اتَّقَى الشبهاتِ استبرأ لدِينِهِ وعرضِه، ومن وقعَ في الشبهاتِ وقعَ في الحرامِ؛ كالراعي يرعى حولَ الحِمَى يوشكُ أنْ يرتَعَ فيهِ، ألاَ وإنَّ لكلِّ مَلِك حمى ألاَ وإنَّ حمى اللهِ محارمُهُ، ألاَ وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ وإذا فَسَدَتْ فسد الجسدُ كلُّهُ ألاَ وهي القلبُ»[3].

وقال رسول الله ﷺ:

«ما نهيتُكُمْ عنهُ فاجتنبوهُ وما أمرتُكُمْ بهِ فأتوا منه ما استطعتم؛ فإنما

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) الأنعام: ١٥١، ١٥٢.

(٣) أخرجه البخاري من حديث النعمان بن بشير.

أهلكَ الذين مِنْ قبلِكم كثرةُ مسائِلِهِمْ واختلافُهم على أنبيائِهم»[1] .

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى فرضَ فرائضَ فلا تضيِّعوها، وحد حدوداً فلا تعتَدُوها، وحَرَّمَ أشياءَ فلا تنتهِكُوها، وسكت عن أشياءَ رحمةً لكم غيرَ نسيانٍ فلا تبحثوا عنها»[2] .

والدرجة الثالثة تشمل توجيه المسلم إلى الأعمال التطوعية التي تنسجم مع الأصول والواجبات في الدائرة الأولى والثانية، والتي تهذب السلوك، وتطهر النفوس، لترقى إلى مرتبة سامية رفيعة، ولتكون على هوية متميزة كاملة، تنسجم مع مبادئها وثوابتها تمام الانسجام، وتظهر مصداقيتُها في التفاصيل وسائر التصرفات .

ويشمل هذا الجانب عملَ النوافل، والمستحبات، وتجنبَ الشبهات، والمكروهات .

وقد كان الجيل الذي شيد الإسلام أول مرة ممن ترقى إلى هذا المستوى الرفيع؛ خصوصاً في فئة الفتيان والفتيات؛ كأمثال علي بنِ أبي طالب، وأسامةَ بنِ زيد، وعبدِ الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، ومُصْعَبَ بن عمير، والبراء بن عازب، وأسماء وعائشة بنتَيْ أبي بكر، ونسيبة بنت كعب، وغيرهم - رضى الله عنهم أجمعين .

ومن المعلوم أن الانضباط وثبات الهوية يتفاوت داخل هذه الدوائر الثلاث؛ إذ أنها تشتمل على تطبيقات واسعة، وتكاليفَ كثيرة، مما يعطي مجالاً أوسع للتحصيل والانجاز، وبمقدار هذا التحصيل والانجاز ومقدار الالتزام بالضوابط والشروط - يكون استقرار الهوية وثباتها .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه الدارقطني وغيره من حديث جَرْثُوم بن ناشر رضى الله عنه، انظر النووي في رياض الصالحين ص ٥٨١ وانظر الدارقطني، سنن الدارقطني ٤/٢٩٧، ٢٩٨ .

أما الجانب الثالث المتعلق بالوسائل والأساليب لتحقيق الهوية وبنائها عند الشباب - فيتناول عدداً كبيراً من الطرق، والوسائط الحسية، والمعنوية، يصعب الإحاطة بها في هذا المقام. وهي مبذولة ومشروحة في الكتب، التي تهتم بوسائل التربية الإسلامية في بناء الفرد والمسلم من جميع الجوانب .

ونؤكد هنا على أن بناء الهوية لا يتم بأسلوب أو طريق واحد، بل تشترك في تكوينه عدة وسائط، خصوصاً في هذا العصر، الذي تم فيه اختراع أساليب جديدة، للتأثير، والاتصال. ولتقريب الصورة يحسن النظر في الشكل (٥) .

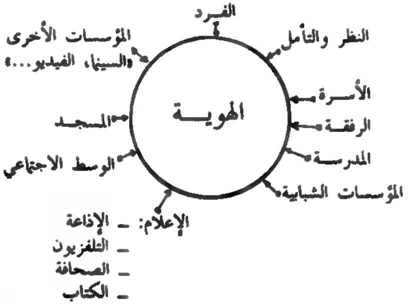

شكل (٥) يبيِّن الجهات المتعددة التي تشترك في بناء الهويَّة

ويمكن تصنيف عدد من العمليات التربوية التي تستخدم عبر هذه الوسائط. ونشير هنا إلى أربع منها:

١ ـ **المعايشة التربوية:** مثل تأثير الأسرة التراكمي على سلوك الطفل

والمراهق، بالتعويد، والاقتداء، والتقليد. ومثل تأثير الرفقة على المراهق بالإعجاب، والتقمُّص، والتحزُّب. وكل ذلك إنما يتم بالمعايشة؛ حتى ينشأ الشاب على هوية معينة، متوافقة مع طبيعة هذه المعايشة واتجاهاتها. وهذا الأسلوب من أهم الأساليب وأقواها تأثيراً؛ إذ أنه أسلوب اجتماعي حيوي متجدد مستمر الحدوث والتأثير .

٢ ـ **النظر والتأمل**: وهي عملية فكرية ذاتية، يقوم بها الفرد ويحفزها ما يعيش فيه الفرد من وسط كوني وحياتي، وإنساني، ثابت ومتجدد،ويمثل مجالاً للتفكر والتدبر. وهذا الأسلوب يكاد يكون مهملاً من قِبَلِ المربين من آباء وأمهات ودعاة ومعلمين. وهو من الأساليب التي استعملها القرآن، وحثَّ الناس على استخدامها، بغية الوصول إلى تحقيق التربية، والتغيير في السلوك بطريقة ذاتية متفاعلة ومقنعة، لا تلقين فيها ولا إلزام[١] .

وإذا قام المربون بتوجيه المراهقين إلى استخدام هذا الأسلوب في تأسيس العقائد وتعميقها، وفي تعليل الضوابط والتكاليف الشرعية وبيان حكمتها – فإنهم يكونون قد استخدموا أسلوباً من أنجح الأساليب، ومن أقربها إلى نفوس المراهقين؛ إذ أنهم يميلون إلى المنطقية، وإلى التأمل والتفكُّر في هذه المرحلة. كما أن تأسيس الهوية باستخدام هذا الأسلوب يكون أكثر عمقاً وإقناعاً، وأكثر ثباتاً ورسوخاً. ونضرب على ذلك مثالاً واحداً من القرآن،

---

(١) انظر لتفصيل أكثر بحث د. مالك بدري، التفكر في الكون وفي الإنسان .

قال تعالى:

﴿إن الله فالقُ الحبِّ والنَّوى يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخرِجُ المَيِّتِ من الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأنَّى تُؤْفَكُونَ. فالقُ الإصْباحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ. وهوالذي جعلَ لكُمُ النجومَ لِتَهتَدُوا بها في ظُلُمَاتِ البَرِّ والبحْرِ قدْ فَصَّلْنا الآيِاتِ لقومٍ يعلمونَ. وهو الذي أنْشَأكُمْ من نفسٍ واحدةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ قد فَصَّلْنا الآياتِ لقومٍ يَفْقَهُونَ. وُهُوَ الذي أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخرَجنا بِهِ نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرجْنا منهُ خَضِراً نُخرِجُ منه حبًّا متراكِباً ومِنَ النخلِ مِنْ طَلْعِها قِنوانٌ دَانِيَةٌ وجناتٍ مِنْ أعنابٍ والزيتونَ والرمَّانَ مُشْتَبِهاً وغيرَ مُتَشابِهٍ انظُرُوا إلَى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ إنَّ في ذلِكُمْ لآياتٍ لقومٍ يؤمنونَ. وجعلوا للهِ شركاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُمْ وخَرَقُوا لَهُ بنِينَ وبناتٍ بغيرِ علمٍ سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفُونَ. بديعُ السمواتِ والأرضِ أنَّى يكونُ لَهُ وَلَدٌ ولَمْ تكنْ لَهُ صاحِبَةٌ وخَلَقَ كلَّ شيءٍ وهُوَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ. ذَلِكُمُ اللهُ ربُّكُمْ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ خالقُ كلِّ شيءٍ فاعبدوهُ وَهُوَ على كلِّ شيءٍ وَكِيلٌ﴾[1] .

هذه الآيات تقوم ببناء أهم الثوابت الأساسية في هوية المسلم، وشخصيته، وهو: التوحيد؛ بإثبات القدرة الإلهية، والحكمة الربانية، والدعوة إلى الإيمان بربوبية الله، وإلى إخلاص العبادة له، وفي ذلك مخاطبة لعقل الإنسان وفكره، ودعوة للعلم، والفقه،

(١) الأنعام: ٩٥-١٠٢ .

والإيمان، من خلال العرض الحي لآيات الكون، والنفس، والحياة، التي يراها الإنسان، ويعايشها في يومه وليلته .

٣ ـ **التوجيه المباشر «التلقين»**: وذلك بالنصح المباشر، والأمر والنهي؛ بأن تقول للانسان: أفعل، أو لا تفعل، مع ربط ذلك أحياناً بالعلل والأسباب، الداعية إليه .

وهو أسلوب مستخدم في القرآن والسنة، ومتبع في التوجيه والتربية، وشائع الاستعمال في الأسر، والمدارس، ووسائل الإعلام. ويكون أثره أكبر عندما يصدر من سلطة محترمة، ومعتبرة عند المتربي. ويُنَفِّذُ المتربي التوجيهات الصادرة بهذا الأسلوب بروح عالية عندما يكون قد أُعِدَّ إعداداً نفسياً وروحياً مسبقاً لتقبل الأوامر؛ كما هو حال المؤمنين الراسخين في الإيمان، عندما ينقادون للتوجيهات الشرعية دون تردد، أو شك، أو سؤال .

٤ ـ **استخدام النموذج**: وذلك بعرض نماذج توضع موضع القدوة في سلوكها ونهجها، يقوم المتربي بالتأسي بها، ومحاكمةتصرفاته ومسالكه إلى ذلك النموذج الرفيع. ويكون ذلك باستخدام القصة المكتوبة،والمسموعة، والمرئية. وباستخدام الأحداث التاريخية المشتملة على النماذج. وبتدريس التراجم؛ للتربية، لا للعلم فقط. ومن ذلك دراسة سيرة رسول الله -ﷺ- وصحابته، وسير الأنبياء، والعلماء، والقادة... إلخ .

ويَسْتَخِدمُ هذا الأسلوب الإعلام بشكل واسع، إلا أن الإعلام في الغالب إنما يعرض النماذج الهابطة والمبتذلة. وقد يكون النموذج مُتَخيَّلاً ومُخْتَرعاً يضعه القاص أو الكاتب، وينسج حوله قصة،

أو مسرحية، تعالج مشكلة، أو قضية معينة؛ كما هو الحال في كثير مما تعرضه وسائل الإعلام من مسلسلات وتمثيليات. ولهذا أثر بالغ الخطورة على الأطفال والمراهقين؛ حيث يتقمصون شخصيات الممثلين، وأبطال القَصَص والمسرحيات، خَيِّرةً كانت أم شريرة، ويقومون بتقليدها في سلوكهم ومعاملاتهم. وهنا يكمن الخطر، ويعظم الضرر. ولهذا يجب ترشيد الإعلام؛ ليدعم مكارم الأخلاق في نفوس الناس عموماً، والنشء خصوصاً .

* * *

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

القرآن الكريم

إسماعيل (محمد عماد الدين) النمو في مرحلة المراهقة، الكويت: دار القلم: الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ .

الألباني (ناصر الدين) صحيح الجامع الصغير، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

بدري (مالك) «التفكير في الكون وفي الإنسان بين العبادة والعلم» الرياض مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد السادس: ٣٧١-٣٩٤، ١٤٠٢ هـ -١٩٨٩.

بييل (أي) الأسس النفسية في التربية، ترجمة صبحي عبد اللطيف المعروف، عالم المعرفة ومكتب التحرير، ١٩٨٢م .

توق (محي الدين) وعدس (عبد الرحمن) أساسيات علم النفس التربوي . دار جون وايلي وأبنائه، ١٩٨٤م .

ابن الجوزي (عبدالرحمن بن علي) زاد المسير في علم التفسير، بيروت:

المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ

الحافظ (نووي) المراهق دراسة سيكولوجية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

حنبل (الإمام أحمد) المسند، بيروت: المكتب الإسلامي الطبعة الخامسة، ١٠٤٥ هـ

الدارقطني (علي بن عمر) سنن الدارقطني، القاهـرة، دار المحاسن للطباعة، المدينة المنورة، عبـدالله هـــاشم يماني المدني، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

أبو داود (سليمان بن الأشعث) سنـن أبي داود، بيروت: دار الحديث الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ

راجع (أحمد عزت) أصول علم النفس، القاهرة، دارالمعارف، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٧٩م.

زيدان (محمد مصطفى) النمو النفسي للطفل والمراهق، جدة: دار الشروق، الطبعـة الثانيـة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦.

سويد (محمد نور) منهج التربية النبوية للطفل، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، الطبعـة الأولى، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

سويف (مصطفى) — الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

الشنقيطي (محمد الأمين) — أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، بيروت: عالم الكتب.

الشوكاني (محمد بن علي) — فتح القدير، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، ١٣٨٣ هـ

العبد الله (يوسف محمد) — العلاقة التداخلية، قطر، الدوحة:دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

عبد الفتاح (كاميليا إبراهيم) — سيكولوجية المرأة العاملة، بيروت دار النهضة العربية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

ابن عساكر (علي بن الحسن) — تاريخ دمشق، المدينة المنورة مكتبة الدار، ١٤٠٧ هـ

العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر) — فتح الباري، القاهرة: دار الريان للتراث، الطبعة الأولى،١٤٠٧.

علوان (عبد الله ناصح) — تربية الأولاد في الإسلام، بيروت: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ ــــ ١٩٧٨م.

الغزالي (محمد) — فقه السيرة، القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة السادسة، ١٩٦٥م.

فهمي (مصطفي) — سيكولوجية الطفولة والمراهقة، القاهرة: مكتبة مصر.

القاضي (يوسف) ويالجن (مقداد) — علم النفس التربوي في الإسلام، الرياض: دار المريخ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.

قشقوش (إبراهيم) — سيكولوجية المراهقة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

قطب (سيد) — في ظلال القرآن، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة، ١٣٨٦ هـ .

ابن القيم (محمد بن أبي بكر) — زاد المعاد، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م.

ابن كثير (إسماعيل) — تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار الأندلس، الطبعة الأولى، ١٣٨٥ﻫ

المباركفوري (محمد عبد الرحمن) — تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ .

الملك (شرف الدين) — الجنوح والترويح في الأوقات الحرة لدى الشباب في المملكة العربية السعودية، الرياض: وزارة الداخلية مركز مكافحة الجريمة/مركز العبيكان للطباعة والنشر، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.

نجاتي (محمد عثمان) — القرآن وعلم النفس، بيروت: دار الشروق، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

نشواتي (عبد المجيد) — علم النفس التربوي، عمان: دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

النووي (يحى بن شرف) — صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٣٤٩ هـ

النووي (يحى بن شرف) — رياض الصالحين، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م.

هارون (عبد السلام) — تهذيب سيرة ابن هشام، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.

المراجع الأجنبيـة

Coleman, J. The Adolescent Society, New York: The Free Press. 1963.

Curtis, R.L."Adolescent Orientations Toward Parents and Peers: Variation by Sex, Age and Socioeconomic Satatus" Adolescence, 10 (40): 481 – 949 (Winter, 1975).

Lacovetta, R.G. "Adolescent – Adult Interaction and Peer – Group Involvement". Adolescence, 10 (39) 327 – 336 (Fall, 1975).

Noghaimshi, A. Students' Perception of Teachers and Student – Teacher Personal Interaction in Ryadh Public High Schools. Ann Arbor: The Universtiy of Michigan, 1985.

Sebald, H.,and White, B. "Teenagers Dvided Reference Groups: Adolescence, 15 (60): 979 – 948 (Winter, 1980).

* * *

المحتـــوى

الموضـــوع	الصفحة
المقدمــة	٣

الباب الأول
طبيعــة المراهقــق

مدخــل	٩
جسد المراهق	١٠
عقل المراهق	١٥
انفعالات المراهق	٢٢
مجتمع المراهق	٢٨

البـاب الثـاني
حاجات المراهق

مدخــل	٣٥
الحاجات النفسية	٣٩
الحاجة إلى العبادة	٣٩
الحاجة إلى الأمن	٤٥
الحاجة إلى القبول	٥٩
الحاجات الاجتماعية	٦١

الموضــوع	الصفحة

الحاجة إلى الرفقة ٦١

الحاجة إلى الزواج ٨٣

الحاجة إلى العمل والمسؤولية ١٠١

الحاجات الثقافيــة ١١٧

الحاجة إلى الاستطلاع ١١٧

الحاجة إلى الهوية ١٥١

المصادر والمراجع ١٧٣

المحتــوى ١٧٩

* * *

من سلسلة

إصداراتنا التربوية

طرق التعليم التربوية في السنة النبوية

د.أحمد فؤاد عليان

الترويح التربوي

خالد بن فهد العودة

الدعوة إلى الله في البيوت

محمد بن فهد الجيفان

علم النفس الدعوي

د.عبد العزيز النغيمشي

دور المرأة .. تربية الأسرة

د .محمد بن صالح الفوزان

التوجيه غير المباشر

د . صالح بن حميد

التوجيه التربوي

د . عبد الحليم العبد اللطيف

حول التربية والتعليم

د . عبد الكريم بكار

مطابع الحميضي
تلفون: ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس: ٤٥٩٢٢١٧

ردمك: ٥-٥١-٨٥٤-٩٩٦٠